دور الصوفية
فى
الحفاظ على الأمة
فى فترات الضعف السياسى

دكتور / مصطفى غلوش.

الأستاذ بكلية أصول الدين / القاهرة.

تقديم :

استثار فكرى غروب شمس (دولة) قوية معاصرة كانت تعد من أقوى الدول فى العالم الحديث ، وهى (الاتحاد السوفيتى) وقد لفت نظرى : أنها تلاشت فى "نعومة" كما يتلاشى السحاب الكثيف عن كبد السماء .

ولعل : هذا الانهيار الدولى لمثل هذه (الدولة) لا يحدث كثيرا على مر التاريخ قديمه وحديثه.

وبقدر اغتباطى لمعاصرة هذا الحدث التاريخى الضخم .. بقدر شعورى بقيمة الأصالة التى ينبغى أن تؤسس عليها الدول . وأن هناك (ترابطاً) بين هذه (الأصالة) وبين هذا (الانهيار).

وأعترف : أننى شعرت بنوع من الراحة إثر إنهيار (الاتحاد السوفيتى) واعتبرته نتيجة لفساد الرؤية (الشيوعية) وأن انهياره هو فى الحقيقة للشيوعية وفضح لضحالة منهجها .

ولكن سرعان ما تبددت هذه الراحة .. لأننى وجدت (الشيوعية دولة) مازالت موجودة ، بل إن الموجود منها الآن : أشد خطراً من (الاتحاد السوبفيتى) فإن الوجود الشيوعى الشرقى المتمثل فى (الصين) الآن : كان يتهم (الروس) بأنهم (تحريفيون) لمبادئ (ماركس) وأنهم بالتطبيق الحرفى للماركسية أجدر بالوصف الشيوعى (فالصين أكثر تشدداً) .

ويكفى أن نعلم أنها الآن (ربع العالم) سكاناً وحضارة وقوة، ذرية وإقتصادية ، بعد أن قام محللوا الغرب بتصنيفها : بأنها من الدول المتقدمة .

أما الشيوعية فى الغرب ، فهى متمثلة فى الجناح الشيوعى الفرنسى الذى تتصل بعدة روافد ثقافية ،وينسل من خلالها إلى مراكز الثقل والإعلام فى الشرق والغرب ، ويحاول أن يتسلل بأيديولوجية معاصرة بالمفاهيم الماركسية.

وعليه : فالشيوعية الدولية .. كانت ومازالت .. لها قوتها وفلسفتها ودولها ، وناديها الذرى الذى يجعل العالم الآن يعمل لها الكثير من الاعتبارات .

وهذا كله : أضاع على رد الفعل المريح من انهيار الاتحاد السوفيتى وبدأت الفكرة تأخذ اتجاها جديدا فى تحليل رؤيتى للانهيار الروسى.

لم أنهارت دولة السوفيت...؟

بعد أن تحولت عن فكرة (الجذور) الشيوعية فى اعتبارها السبب فى الانهيار وأن هذه الجذور لو كانت .. لكان غيرها أقرب بالانهيار منها وأسرع. طفقت أرتب الأمور من منطلق ما يمر عبر تاريخ الإنسانية وهو يصدر عن : مدنيات وحضارات ودول سادت : ثم بادت.

وأن الضعف ينتاب (الدول) والأمم ، كما ينساب (الضعف) إلى شباب الرجل فيهشم عظمه ويفرى شحمه ، ويدب فيه (الوهن) المؤذن بالرحيل .

وإن نظرة إلى مقومات بنيان (الدول والأمم) كما حاول أن يقنن لها (ابن خلدون) فى (مقدمته) لتعطينا : أن القوة فى جميع الاتجاهات هى التى تجلب : الغلبة والسلطان وتكون الدول وتجمع الأمم .

وبقدر أصالة هذه (القوة) واستمرارها ، بقدر بقاء هذه (الدول).

ويؤكد (إبن خلدون) على أنه عندما تعترى (الأمم) جوانب الضعف ، فإن (الخراب) يتسرب إليها ، وتسرع إلى (البداوة) والتخلف والتفكك .

وقد رأيت أن سنة الله فى الكون وقد جرت بمثل هذا... وأن (إبن خلدون) كان(راصدا) فقط ، لما كان يجرى فى الكون من صراع (الحضارات) وأن مادة فكرته تجمعت لديه بعدما انتهى من كتابه (ديوان المبتدأ والخبر) ، فوضع (مقدمته) ليفهم تاريخه وهذا يؤكد أنه منفعل بالتاريخ، متأثر بأحداثه.

وهذا فرع عليها أن ننظر فى سياق الأحداث القديمة لنرقب الدولة والأمم ، وكيف سادت ، ثم كيف دالت .. وكيف مرت الأحداث الخطيرة ، فى حياة البشرية والأمم ، وكنت إثر استرجاعها أرجع قول

الله تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)(آل عمران:٢٦) .

حضارات بادت وأمم تلاشت :

وقد رأيت أمما قوية ،وحضارات ساحقة ترعرت فى جنبات التاريخ ثم جرى عليها عوامل التفكك ،والانحلال ، فبادت ، وتلاشت وصارت أمسا ، ويشى به : (حجر) هنا ، (ونقش) هناك مثلما رأيناه فى الحضارات التالية :-

١ – الحضارة السومرية :

ربما يكون شعب (السومريين) أسبق الشعوب إلى تكوين (مدنيته) بالمعنى الحقيقى فى العالم ، وكان مقامه فى إقليم (دجلة والفرات) وكان مفتوحا من كل نواحيه ،وقد استقر (السامريون) فى البداية فى سهول النهر الجارى على مقربة من الخليج الفارسى ويقدر (سايس Sayce) فى كتابه (الحياة البابلية والأشورية) تاريخ بدء الحضارة السومرية بسنه ٦٥٠٠ قبل الميلاد.

وهم الذين شيدوا برجا عظيما ،ومازالت قصة (برج بابل) أحد عجائب الدنيا السبع مشهورة فى مدينه (ينبور) .

ونمت الحضارة السومرية واستجمعت مقومات الحضارة عسكريا واقتصاديا حتى تحولت إلى (امبراطورية) على يد رئيس كهنة مدينه (ايرتش السومرية) وقد جاء فى أحد النقوش أن هذه الإمبراطورية امتدت من الخليج الفارسى الأدنى إلى البحر الأعلى (البحر الأبيض والأحمر) .

وقد عرفت هذه الإمبراطورية أول (الكهنة الحكام) فى تاريخ الجنس البشرى وقد امتدت حضارتهم إلى (الهند) ، كما دلت آثار المناطق الشمالية القريبة من الهند.

وقد حكت (الموسوعة الأثرية العالمية) تطور الحضارة (السومرية) وكيف تعرضت (للطوفان) الذى شطر ملكها ، ثم كيف زالت وقام على انقاضها (حضارة) اخرى[1].

---

[1]) يراجع ص ٥٠٠ من الموسوعة الأثرية العالمية .

ويقول (ديورانت) فى كتابه (قصة الحضارة) .

(وظلت مده تنعم بعهد من أكثر عهودها الطوال رخاء ورفاهية وأخضع أعظم ملوكها (أنحور) جميع بلاد آسيا الغربية ، وأعلن فى جميع الدولة السومرية أول كتاب شامل من كتب القانون فى تاريخ العالم – قبل حمورابى – وقال : (لقد أقمت إلى أبد الدهر صرح العدالة المستندة إلى قوانين (شمس) الصالحة العادلة.

وقد فعل بعاصمة حكمه أفعالا حضارية ومعمارية شبيهها (ديورانت) بما فعله (بركليز) فى (أثينا) فى عصر حضارتها .

ويؤكد (ديورانت) فكرتنا فيقول :-

(لكن سرعان ما أخذ المجد يزول ، فقد انقض على هذه الحضارة – مدينة أرو – التى كانت تنعم وقتئذ بالرخاء والفراغ والسلم أهل عيلام من الشرق، والعموريون من الغرب، فأسروا ملكها ونهبوها ودمروها شر تدمير...)[1].

وينقل (ديورانت) بعض زفرات الشاعر السومرى الذى يصف الحضارة التى زالت ولم تقو على الصمود أمام جحافل العدو الغازى .

يقول الشاعر السومرى على لسان "امرأة"

لقد انتهك العدو حرمتى بيده النجستين .

آه ، ما اتعس حظى ، إن هذا العدو لم يظهر شيئا من الاحترام ،بل جردنى من شبابى وألبسها زوجه هو ...

وانتزع منى حليى وزين بها أخته ...

وأنا الآن أسيرة فى قصوره ، فقد اخذ يبحث عنى ، فى ضريحى.

واحسرتاه ، لقد كنت ارتجف من هول اليوم الذى أخرج فيه .... فقد اخذ يطاردنى فى هيكلى ، وقذف الرعب فى قلبى ....

هناك فى جدران بيتى ، وكنت كالحمامة ترفرف ثم تحط على رافدة .

---

[1]) يراجع ص ٢٢ ط١ من (قصة الحضارة) لديورانت.

أو كالبومة اختبأت فى الكهف ، وأخذ يطاردنى فى ضريحى كما يطارد الطير.

طاردنى من مدينتى ، كما يطارد الطير وأنا اتحسر وأنادى.

(إن هيكلى من خلفى ، وما أبعد المسافة بينه وبينى) .

ويعقب (ديورانت) على هزيمة الحضارة السومرية بقوله: (فلم نعد نسمع عن السومريين إذ طويت صحفهم القليلة من التاريخ) كما طويت حضارتهم وزالت[1].

٢ – الحضارة الأكادية

امبراطورية سرجون الأول.

يعتبر سرجيون (سنة ٢٧٥٠ ق م) زعيم القبائل الأكادية السامية التى أغارت على (السومريين) المجاورة لها ، لمدة طويلة وظل معهم فى مناوشات حتى استولى عليهم ومد سلطانه إلى ما وراء الخليج الفارسى شرقا والبحر المتوسط غربا.

وقد استمرت هذه الإمبراطورية حوالى (ألفى عام) ومهدت هذه المدة لصعود نجم الشعوب السابقة فى كل أنحاء الشرق الأدنى، ولكن الثقافة (السومرية) ظلت هى (المسيطرة) على الثقافة السابقة وظلت اللغة السومرية هى لغة العلم والمعرفة طوال حكم هذه الإمبراطورية.

ولكن سرعان ما دب الضعف والانحلال إلى هذه (الإمبراطورية) عندما فقد الشعب (السومرى الأكادى) قوته السياسية والحربية عندما غمرها من الشرق موجات جديدة من شعب محارب يسمى (الميلاميين) وتزامن ذلك مع غزو آخر من الغرب من القبائل (العمورية) .. فدب الخراب إلى الإمبراطورية.

---

[1]) يراجع ص ٢٣ جـ ١ من قصة الحضارة .

٣ – الدولة البابلية :

القبائل (الميلامية) سلالة شعب مجهول اللغة والنسب فلاهم: سامرية ولاهم أكاديون ، كما يجزم (سايس) وكانت عاصمتهم مدينة (سوسة) .

أما القبائل (العمورية) فإنهم كانوا من نفس الأرومة التى منها (إبراهيم عليه السلام) ومن تلاه من العبرانيين المتأخرين وقد استقروا فى مدينة (بابل) .

وقد قاد (حمورابى)هذه القبائل وأسس امبراطورية قوية ذات حضارة ومدينة (سنة ١٢٠٠ ق م[١]).

وتذكر (الموسوعة الأثرية العالمية) أن (بابل) اشتهرت بالتاريخ والأسطورة وهى الأن ضمن دولة العراق (جنوباً) ومازال تل بابل يحمل هذا الإسم حتى الآن .

وكانت (بابل) عاصمة لامبراطورية (سومر وأكاد) إلى أن أسس بها مهاجرون ساميون وفدوا من (القرب) أول أسرة بابلية فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

ولم تتوطد الإمبراطورية الحضارية إلا فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد تحت حكم (حمورابى) المشرع المشهور الذى قدم حضارة إنسانية مازالت محط إعجاب العالم شرقه وغربة.

وقد قويت الحضارة البابلية قوة ما عرفت الأرض مثلها فى عصرها .

وتعتبر (الحضارة الكلدانية) امتداداً للحضارة البابلية ، وقد أسهمت فى ميدان تقدم الإنسان بسهم وافر وخاصة فى عهد بوخذ نصر الثانى (٦٠ / ٥٦١ ق.م) فحول (بابل) إلى أحد عجائب الدنيا السبع فى العالم وهو شخصية ذات عظمة وبها جبروت ، كما ورد فى سفر (دانيال) .

ولكن دار الزمان فضعفت الحضارة والمدنية وأصابها الضعف السياسى .

---

١) يراجع ص ١٦٠ ، جـ١ من كتاب (ويلز) .

فعندما جاء عهد آخر الكلدانيين (؟) سقطت (بابل) المدينه الحضاية العجيبة دون قتال (سنه ٥٣٩ ق.م) فى يد (الفرس اثناء حكم (قورش) .

ويصف (هيرودوت) المؤرخ اليونانى الذى زار مصر (سنه ٤٥٠ ق.م) (بابل) وبرجها والحدائق المعلقة ، بكل الاعجاب مثنيا على هذه الحضارة متعجبا من تلاشيها[١].

الأشوريون :

الأشوريون اسم مشتق من (أشور) وهو أسم (الإله) الذى عبدوه ، والذى تيمنوا به حتى اطلقوا اسمه على عاصمة بلدهم التى تشرق على نهر (دجلة) فى بلاد الرافدين – العراق .

وحوالى منتصف الألف الثالثه قبل الميلاد (٢٥٠٠ ق.م) كان لسكان آشور حضارة ومدنية مادية لا تكاد تختلف عن حضارة السومريين فى الجنوب .

وكانت بلاد (آشور) تخضع للحكام الأجانب أو الأقارب حتى كان القرن الثامن عشر قبل الميلاد الذى شهد الفترة الأولى لسيادة (الحضارة الأشورية)فى عهد (شمشى) .

ولكن منذ حكم (تجلات بيلاسر الثالث) (سنه ٧٤٥ / ٧٢٧ق.م) بدأت تاريخ آشور كامبراطورية التى شملت بالتوسعات (مصر) ...

وقد تركزت فى مملكة آشور : قوى شعبه وعبقريته الحربية فتحولت الإمبراطورية الأشورية إلى : قوة حربية فتاكة تتسم بالقسوة وعاملت (الأسرى) بقسوة[٢] وقد (وصمت الدولة الأشورية بطابع بربرى أدى إلى اهمال انجازاتهم فى سبيل المدنية)[٣].

وكان (الأشوريون) يفرضون الجزية على غيرهم ويتلقون أموالا من (مصر) .

---

١) يراجع ص ٢٤٢ وما بعدها من (تاريخ ويلز) بتصرف .
٢) يراجع ص ١٠٤ من (الموسوعة الأثرية العالمية) .
٣) فقد ادخلوا : الحصان والعجلة الحربية والمنجنيق لاول مرة فى الحرب .

وقويت هذه الحضارة الأشورية حتى (أصبح ملك العالم لقبا يدعيه آشورى تارة وبابلى تارة اخرى)[١].

وقد قاد (سنحاريب بين سرجيون) جيوش الآشوريين القوية إلى تخوم (مصر) ولكن جيشة أصيب بالطاعون .

وقد وصف فشل هذه الغزوة : الاصحاح التاسع عشر من سفر المملوك الثانى فى العهد القديم الإسرائيلى : فيقول :-

(وكان فى تلك الليلة أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش أشور مائة الف وخمسة وثمانون ألفا ولما بكروا صباحا إذا هم جميعا جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعا واقام فى نينوى .

ولكن الدولة الأشورية كانت مصممة بقوتها على غزو مصر فتمكن (حفيد سرجون) المسمى (آشور بانيبال) وهو الذى يطلق عليه الإغريق (ساردانا بالوس) من غزو مصر وقد استبقى (دلتا مصر) تحت يدة فترة من الزمان.

النهاية :

ولكن هذه الحضارة الآشورية سرعان ما دب فيها الفساد وانتابها الضعف السياسى ، فقد زحف عليها (الكلدان) من الجنوب الشرقى ، وهم ساميون ، ولذلك زحف من (الآريين) الفرس وشعب (الميديون) ، فاستولوا على (نينون) سنه ٦٠٦ ق.م) وسقطت بذلك الإمبراطورية الآشورية وزالت بعد سيادة ، وصارت (صفحة طويت) فى التاريخ القديم .

وقد مات (أشور بانيبال) سنه ٦٢٦ ق.م) وهو آخر الملوك الآشوريين والتى تلاقت لديه الأسباب التى عرضت الدولة للخراب من جراء السياسة الحمقاء.

وبعد أن يستعرض (ديورانت) أسباب انحلال الإمبراطورية الأشورية ملتمسا لها الأسباب

---

١) راجع ص ١٦٢ من كتاب (معالم تاريخ الإنسانية) ويلز .

نجده يؤكد انه فى (سنة ٦١٢ ق.م) اجتاح الامبراطورية الاشورية جيش من (البابليين) بقيادة (بختنصر) ومعه جيش (الميديين) بقيادة (سياخار) .

وسرعان ما سقطت القلاع بسهولة وخربت (نينوى) وذبح أهلها وهكذا اختفت أشور من التاريخ ، ولم يبق منها الا بعض افانين الحرب واسلحتها وتيجان لولبية لبعض عمدها النصف – الأيونية – وبعض النظم الادارية ، وانتقلت منها إلى الفرس ومقدونيا ، وروما ، وما هى الا فترة قصيرة حتى نسى الناس أسماء ملوكها العظام ما عدا أعظمهم قوة بطشا وأصبحت قصورهم خربات دراسة تحت الرمال السافية ، وحتى آشور نفسه آلهها الخالد أمس فى عداد الموتى[١].

٥ – الحيثيون (حضارة الحديد) .

كان (الحيثيون) من اقوى الشعوب (الهندوسية) القديمة ومن أكثرها حضارة ، وأكبر الظن أنهم جاءوا عن طريق (البوسفور) و (الدردنيل) وبحر (ايجة) وسيطروا على أسيا الصغرى (سنة ١٨٠٠ق.م) تركيا الآن واستقروا على منابع (دجلة والفرات) (وكانوا حضارة) قوية نشروها بجيوشهم على من حولهم فبسطوا نفوذهم على (سوريا) وهددوا (مصر) القوية ، حينا من الزمان حتى اضطر رمسيس الثانى إلى عقد الصلح معهم معترفا لملك الحيثيين بالندية لحضارة مصر.

وقد أقام (الحيثيون) حضارتهم على منـاجم (الحديد) الذى استخرجوه من الجبال المتاخمة لأرمينية ، ولكن سرعان مازالت هذه الحضارة .

ولقد اختفى (الحيثيون) من صفحة التاريخ اختفاء يكاد يشبه فى غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، فقد اندثرت عواصمهم واحدة بعد واحدة ... وسقطت (قرقميش) آخر عواصمهم فى يد الآشوريين (سنة ٧١٧ ق.م)[٢].

---

١) يراجع ص ٢٩٩ جـ ٢ من كتاب (قصة الحضارة ، لديورانت) .
٢) يراجع ص ٣٠٣ جـ ٢ من كتاب (قصة الحضارة) ديورانت.

٦ – الفنيقيون :

الفنيقيون من الجنس السامى ، قدموا من شواطئ الخليج الفارسى فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد .

ومعنى (الفنيقى) (النخلة) التى تجمل شواطئ الشريط الضيق من الأرض الذى يبلغ طولة (مائة) ميل ولايزيد عرضة على عشرة أميال محصورا بين البحر من جهة ، وسوريا من جهة أخرى وهذا الشريط هو ما يطلق عليه (بلاد فينيقية) .

وقد اضطرتهم الجبال الشرقية لبلادهم إلى العيش على ظهر البحر ، وظلوا منذ عهد الأسرة السادسة المصرية إلى ما بعدها من انشط تجار العالم القديم .

ولما تحرروا من حكم مصر (سنه ١٢٠٠ ق.م) اصبحوا سادة البحر المتوسط وعاشوا حضارة تجارية جلبت لهم كل الخبرات من كل موانى العالم .

ولكن هذه الحضارة الفينقية ، لم تفرق بين التجارة والغدر فلجأوا إلى (القرصنة) ونبغوا فى (الملاحة) واكتشفوا طريق (رأس الرجاء الصالح) قبل (فاسكو داجاما) بنحو الف عام .

وقد أقاموا (حاميات) لطرق التجارة تحولت إلى مدن بعد ذلك مثل قرطاجنة ، ومارسيليا ، ومالطة ، وصقلية ، وسردينيا ، وفورسقة ، واحتلوا (قبرص) و(ميلوس) و(رودس) ، وشرعوا ينتشلون (أوروبا) من براثن الهمجية .ومن المدن (الفينيقية) مدينه (صيدا) و (صور).

ويقول ديورانت : (وما أن حل القرن التاسع قبل الميلاد ، حتى كانت صوره مدينة غنية فى عهد ملكها (جيرام) صديق الملك سليمان[1] وفى ايام زكريا حوالى (٥٢٠ ق.م) ، كانت (الفضة) التى تجمعت فيها كأنها التراب وكان (الذهب) كأنه وحل الطرقات.

ويقول عنها إسترابون (إن بيوتها من طبقات كثيرة بل إنها اكثر طبقات من بيوت رومة) .

---

[1]) هو نبى الله سليمان بن داود ، عليهما السلام .

ولكن هذه الحضارة الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتى تكونت على (ظهر البحار) والتى يمكن أن نطلق عليها أول (حضارة بحرية) فى العالم القديم ، مالبث أن دب فيها عوامل الضعف والتخريب .

فقد استكثر عليها (الاسكندر) المقدونى استقلالها وحضارتها واعتبرها وجودا متحديا لامبراطوريته دون ان يدخل معها فى حرب عسكرية.

وإنما حربه لها كانت (حربا) اقتصادية وسياسية فقد (بنى طريقا فى البحر) جعل منها (شبه جزيرة) ثم أجهز عليها عندما بنى مدينة (الإسكندرية) التى ازدهرت فكان ازدهارها السبب فى موت مدينة (صور) وبموتها تلاشت الحضارة الفينيقية.

ولن ينس العالم (كما يقول ديورانت للأمة الفينيقية) أن (تجار فنيقيا) هم الذين علموا العالم القديم كله الحروف الهجائية المصرية[1].

أمم أخرى : سادت ثم بادت :

١ – أمه الأرمن :

وقد جاورت الآشوريين وكانت أمة مستقرة ، وعرفت بإسم (أرارتو) وكانت لهم حضارتهم المستقلة لمدة قرون كثيرة تبدأ قبل فجر التاريخ المدون .

ولكنهم اضاعوا حضارتهم فىالحروب الهجومية والدفاعية وزالت حضارتهم مع دولتهم عندما استولى عليهم (الفرس) فى ايام (قورش) الفاتح .

---

[1]) وهذا اعتراف تاريخى بسبق (مصر) فى ابتكار (الحروف الهجائية) وان الحضارات الأخرى تعلمتها فى (مصر) ويراجع ص ٣١٥ جـ٢ من كتاب (قصة الحضارة) .

٢ – الدولة المصرية :

وهى محفورة علىجدران الآثار .. ولكن اين هى الأن ؟

٣ – الدولة اليهودية :

بدأت مع النبوات الحاكمة ، وتلاشت منذ (عصر القضاة) .

٤ – الدولة الإغريقية (الاسكندرية) .

تحدثت الفلسفات والحروب والقوانين عنها حتى سادت العالم فأين هى الأن (دولة اليونان) صارت رمزا لحضارة عظيمة تلاشت .

وكلها بادت وتفرقت ، رغم أن بواعث النشأة فيها تعددت فمنها ما قام على (الدين) ومنها ما قام على (الكهانة) ومنها ما قام على (التجارة) ومنها ما قام على (فن القتال) ومنها ما قام على الحكمة والفلسفة ، وما قام على (المناجم) وكذلك تعددت. وتنوعت عوامل الضعف والانهيار والتلاشى.

بل نظرت إلى التاريخ الحديث استطلعه فوجدت أن ما جرى فى الماضى يجرى على عالمنا المعاصر .

أ – فقد تلاشت الإمبراطورية الفرنسية التى أسسها (نابليون) وصارت تاريخا لم يبق منه إلا اللغة والدولة المحدودة .

ب – وتلاشت الإمبراطورية الإنجليزية (سيدة البحار) وصارت دولة تتشبث (بالفوكلاند) رمزا لمجد زائل وتتعلق بغيرها توهما لسيادة أو اشتراك فى صنع قرار .. حتى صارت (إمعه) لأمريكا الدولة الكبرى تحت (وهم) الشراكة فى القرار.

ج – وتلاشت القوة الايطالية الغاشية برعامه (موسولينى) التى غزت الشرق وهددت الغرب .

د – وتلاشت الهجمة الألمانية (النازية) التى اركعت اوروبا تحت اقدامها .

هـ – وستلقى (إسرائيل) نفس المصير لتشابها فى ضعف الأساس وانعدام دعائم الثبات والوجود التاريخى .

وقد لاحظت أن هذه الحضارات والأمم التى تكونت أثر حركة تاريخية قوية تحت قيادة طموحة رائدة ولديها قدرة الزعامة لتكوين الإمبراطوريات.

إن هذه الإمبراطوريات قد اهتزت واضطربت أطرافها من أول (هجمة) أو (مواجهة) أو (حرب) أو تنازع) ، وكأنها (عقد) انفرطت حباته ثم تفرقت شعوبها.

وربطت هذه الجولة فى تاريخ الأمم والإمبراطوريات بما كان سببا فيها ، وهو انهيار (الاتحاد السوفيتى) .

فوجدت أن (ابن خلدون) كان (راصدا) ماهرا لموضوعات التحول والتلاشى للدول والحضارات ، وإن هذا يكاد أن يكون (قانونا) مادته فى (الكون) ظاهرة كونية ، تشرق بقانون وتتلاشى بقانون (سنة الله فى الذين خلوا ...)

ويمكن صياغته على النحو الأتى :-

إذا تكونت حضارة (ما) أو تجمعت أمه (ما) بأى عامل من عوامل تكوين الحضارات .. فإن عوامل الضعف والانهيار لاتلبس أن تداهمها إذا تعرضت لاى ظرف من ظروف (الضعف السياسى) فيطمع فيها الاعداء فيدب الخلاف فيها ، فيتسرب اليها الخراب .. فتنهار وتتلاشى ويمكن أن يقال عنها .. (سادت ثم بادت).

ولكن لفت نظرى أن هناك (أمة) تكونت وأدت دورا حضاريا رائعا واكتسبت كل مقومات الأمم والحضارات والإمبراطوريات .. وهى حضارة (الأمة الإسلامية) .

وهذه الحضارة تميزت بشئ فريد جعلها تنفرد عن غيرها من الحضارات التى سبقتها والحضارات التى تلتها.

وكان يمكن القول أن الحضارات السابقة عليها لم تتعلم من الحضارة الإسلامية بعامل السبق ولكن القول بأن الإمبراطوريات التى أتت بعدها ووقفت على أسلوب حضارتها لم تتعلم منها .. قول بعيد عن الصواب لعدة أسباب .. ولعل أبسطها هو تواصل الحضارات وهو قانون إنسانى يحكم الإنسان قبلما يحكم الدول .

الخصيصة المميزة :

ولكن ما هو الشئ الذى ماز هذه الأمة عن غيرها ... ؟

وفى محاولة للإجابة عن هذا السؤال ينبغى علينا أن ندرك أننى هنا اصدر من منطلق رؤية هذه (الأمة) فى جانبها السياسى كدولة وكإمبراطورية ...

ولا انطلق من خلال تميزها (عقائديا) أو (شرعيا) أم (أخلاقيا).

فهذه أمور (ثابتة) التميز على مر العصور والدهور سواء بقيت دولة الإسلام ، أم تلاشت ،وليست هذه الزاوية موضوع دراسة لان فكرة المقارنة بغيرها ، فكرة غير مطروحة (منهجيا) لانعدام المقارنة لا فى الجانب العقائدى ، ولا الأخلاقى ، ولا الإقتصادى .

كما أننى هنا : لا أنطلق من (موقع) حفظ هذه الأمة فى الجانب الذى نزل به (الوحى) على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن عقيدتنا نحن المسلمين : أن حفظ (وحى) هذه الأمة ، ليس منوطا بأى من (البشر) حتى يكون متفضلا على (وحى الله) يوجد بوجوده أو يفنى بفنائه والعياذ بالله.

وعليه فإن حفظ (وحى الله) قضية قد تكفل الله تعالى بها خارج نطاق الطاقة البشرية .

يقول الله تعالى : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر:٩) ولذلك : فإننى هنا أؤكد أننى :

أ - لا أقارن بين الأمة الإسلامية وبين غيرها من الأمم فى الجانب العقائدى أو الأخلاقى أو والاقتصادى (المنهج) .

ب - ولا أتحدث عن حفظ (وحى) هذه الأمة الذى نزل به الروح الأمين (جبريل) على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم بلاغا حتى صار منهجا لتكوين الأمة الإسلامية ، بالمعنى الشرعى .

الأمة الإسلامية بالمعنى الشرعى :

اقصد هنا بمعنى الأمة ... مجموعة الخصال والقواعد الأخلاقية ، والأصول العقائدية والمبادئ الفرعية ، التى تكون فى عقل وقلب الإنسان المؤمن بها فتصير (أما) له ترضعه قواعدها وأصولها .

ويصير (مأموما) بها مقتديا بهديها لا يبارح التعاليم التى تصدر عنها قط ، وميزان هذه المعنى : أن كل إنسان يتمنى أن تكون فيه هذه الأمور والأصول والقواعد ، حتى ولو خالفها فى الاتباع ،وهذه الأصول يمكن أن تجمع فى (صدر واحد) أو عدة (صدور) لا يعلى شأنها كثرة الاتباع ولا يحط من قدرها قلة الأنصار.

وقد لمح ذلك فى وصف القرآن الكريم لسيدنا إبراهيم عليه السلام "إن إبراهيم كان أمة" فقد كان (صدرا) واحدا تجسدت فيه كل أمور (الأمة) وكذلك لمح فى مثل قولة تعالى :-

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) (آل عمران:١١٠)

والخلاصة فى معنى الأمة :

ولعلى أخلص من هذا إلى أننى أقصد بمعنى الأمة الإسلامية هو : ذلك الهيكل البنائى الحضارى والمدنى والذى ظهر على هيئة دولة قوية لها شعب واحد (موحد) باعتبارات متعددة ... وكون فعلا (دولة) قوية صارت ذات شوكة وأصول تاريخية ، وكونت (إمبراطورية) مترامية الأطراف ترفرف عليها الأعلام الواحدة مهما تعددت الألسنة أو كثرت الأقاليم .

ومهما يكن من (نفور) المؤرخ المسلم من إطلاق مصطلح (الإمبراطورية) على الدولة الإسلامية فإن (المقياس) الذى وضعه المؤرخون لإطلاق مثل هذا المصطلح ينطبق تماما وبجدارة على الدولة الإسلامية .

ولكن الذى نجده أن مؤرخى الإسلام يروق لهم أن يطلقوا مصطلح (الأمة الإسلامية) على هذه (القوة السياسية) الحاشدة التى تتخذ الإسلام منهجا للتوحيد بين شعوبها وأفرادها وللتجميع بين قبائلها وأقاليمها .

وقد ازدهرت (الحضارة الإسلامية) منذ فجرها الأول فترة طويلة من التاريخ ، كانت فيه هى : القوة الأولى فى العالم. فضربت المثل الأعلى لكل الحضارات السابقة والتالية، فى فتوتها وقوتها ...

معنى الضعف السياسى :

وهنا نأتى إلى سؤال هام ؟

هل تعرضت الأمة الإسلامية لمعنى : الضعف السياسى ؟

والحقيقة : أننا ما نجد أمة من الأمم تعرضت لفترات كثيرة وطويلة من : الضعف السياسى ... مثلما تعرضت له (الأمة الإسلامية).

فبينما نجد (الأمم) الأخرى : تنهار إثر تعرضها للضعف السياسى وتتلاشى، نجد أن (الأمة الإسلامية) ثابتة راسخة ولا تنهار ولا تتلاشى وتظل فى (وجود) عجيب يسرى فى بنيان (الأمة).

وإذا كنا نلاحظ : انهيار الحضارات منذ (أول) ضعف سياسى فإننا : نلاحظ أيضا : كثرة فترات الضعف السياسى التى وردت على الأمة الإسلامية ومازالت قوية مترابطة لم يتسرب إليها (الانهيار) .

أو إن أردنا أن نأتى بوصف آخر فلنا أن نقول (مازالت الأمة الإسلامية : موجودة) .

وإذا كان (الوجود) بقاء ... والبقاء ضد الفناء وللفناء عوامله ، وللبقاء عوامله ... فإننا بذلك نكون قد اقتربنا من ملامسة الفكرة التى ندعيها ، وهى :-

أن الأمة الإسلامية ظلت كما هى متماسكة باقية موجودة رغم توارد (فترات الضعف السياسى) أكثر من مرة وبقوة وبضراوة وقد امتدت فترات الضعف السياسى مددا طويلة ، بل أن إحدى فترات الضعف امتدت إلى اكثر من عدة قرون .

ورغم (تكرار) فترات الضعف السياسى وطول أزمان الضعف السياسى ، فإن الأمة الإسلامية مازالت تزيد وتقوى وتصحو وتنهض ويعمل لها (الأعداء) ألف حساب فى ضعفها .. كما كانوا يهابونها فى

قوتها .. وتلك (خصيصة) لم تعهد فى تاريخ الأمم السياسى والحضارى ، فهى : الحكمة البالغة لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

وهذا (البقاء) ميزة كبرى لم نشهدها قط فى أى حقبة من حقب التاريخ قديمه وحديثة ..

وهنا نأتى إلى سؤال ... ؟ ما هو الشئ التى ثبت الأمة سياسيا فى فترات الضعف السياسى ؟

ما هو سبب البقاء السياسى للأمة الإسلامية ؟

إذا اردنا الإجابة عن السؤال الذى يبحث عن السبب الذى (ثبت) الأمة الأسلامية وربط على قلبها فى فترات الضعف السياسى .

فإننا بموضوعية نطرق الجانب السياسى فى (العضوية) الإسلامية فنقرر بقناعة أن عوامل الضعف السياسى ، قد داهمت الأمة الإسلامية عندما وجدت أسباب هذا الضعف .

وهى أسباب كثيرة ومن أهمها :-

أ - ضعف الملوك والسلاطين والحكام وحياة الترف والرفاهية .

ب - تفشى الخيانة فى إدارة الدولة واقتناء الأموال .

ج - ذهاب الجيوش التى تحفظ القوة للأمة بقلة النفقة .

د - ضعف معنى (الجهاد) وتفشى القعود عن نصرة دين الله.

هـ - ضياع (الحرية) السياسية بإحتلال أرض الأمة .

ز - ضياع الأقتصاد للأمة بالنهب والسلب .

ح - إهمال شئون الرعية فتنتشر المجاعات والفساد .

ط - القتل والتشريد للآلاف من أبناء الأمة لحملهم على ترك الوطن والخضوع وعدم المقاومة .

ى - انتشار الظلم مما يجعل الأمة غير آمنة.

ك - إهمال شئون الفقراء والمساكين مما يسبب شرخا فى الأمة .

وإذا كانت هذه بعض الأسباب التى إن وجدت فى أى (أمة) تسرب اليها (الخراب) ولفها ، الضعف السياسى المؤذن بإنهيارها وتلاشيها .

فإن الأمة الإسلامية منذ بداية بالعصر (العباسى الثانى) .. قد تعرضت لهذه الأسباب وأكثر قسوة وشدة.

فقد تكالب عليها : العناصر البشرية المتناقضة وتآمرت بها قوة الحضارات المغلوبة وفتحت عليها عدة (جبهات) فى مختلف الاتجاهات الفكرية والعقائدية والإقتصادية والعسكرية والسياسية .

فالأمة الإسلامية لم تكم بمنجاة من توارد عوامل الضعف السياسى :

بل لا أبالغ عندما نشير إلى أن (أعداء) الأمة الإسلامية تضافروا سويا فيما يشبه (الاتفاق) بينهم لبث عوامل الضعف فى الحياة السياسية الإسلامية ، بل أنه (اتفاق) حقيقى ،إذا اعتبرنا (الغاية) ، وإن نظرة سريعة إلى نشأة (الخوارج) و (الشيعة) و (الدولة الأموية) ثم نشأة (الدولة العباسية) وكيفية هذه (النشأة) ، نجد أن هذه الأمور كلها (سياسية) وإن حاولت الاحتماء بصيغة (دينية) لم تنطل على (النقاد) فى محيط الفكر الإسلامى.

وإن أردنا أن نفرع أكثر : ضممنا إلى هذه التيارات السياسية التى جلبت الضعف على الأمة الإسلامية ما شاهدناه فى العصر (العباسى الثانى) ، وكيف : استقلت (الدويلات) فى المغرب والمشوق الإسلامى (مفتة) وحدة الأمة الإسلامية ،وجالبة الضعف السياسى قبل الأوان .

ويكفى أن يلحظ ...

أ – الدولة الفاطمية فى مصر والمغرب .
ب – دولة بنى بوية (٣٣٤هـ : ٤٤٧هـ)
ج – دولة الأتراك السلاجقة (٤٤٧هـ : ٥٩٠هـ)
د – الدولة الخوارزمية .
هـ – الدولة الأيوبية
د – دولة المماليك (البحرية)
و – الدولة السامانية – فيما وراء النهر .
ح – الدولة الحمدانية (بجزيرة العرب) .

وقد تسبب ذلك فى تحول بعض أمراء هذه (الدويلات) إلى مصدر خطر على (جيرانه) من الأمة الإسلامية .

وقد لفت نظر (إبن الأثير) تعرض الأمة الإسلامية للبلاء أكثر من الأمم القديمة ، فنجده يقول عند أحداث عام ٦١٧هـ "لقد ابتلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم"[١].

البلاء والشديد ...

وهل يمكننا أن نتصور بلاء تتعرض له (الأمة الإسلامية) أشد من بلاء خيانه الحكام فى الدويلات الممزقة .

حتى نجد بعض هؤلاء يزيد من الضعف السياسى للأمة الإسلامية فيستدعى (اعداء الإسلام) على أمته فنجد من المؤرخين من يذكر لنا : أن الصليبيين الذى اضعفوا الأمة سياسيا ، قد قام بإستدعائهم بعض أبناء هذه الأمة .

يقول إبن الأثير ...

"وقيل : إن فى سبب مجئ الصليبيين للشرق – أن اصحاب مصر من العلويين – يقصد الدولة الفاطمية – لما رأوا قوة الدولة السلجوقية – سياسيا – وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام وغزة ، ولم يعد بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخولها وحصرها ..

خافوا – أى الفاطميين – وأرسلوا إلى الفرنج – الصليبيين – يدعونهم بالخروج إلى الشام ليملكوها ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين[٢].

وهكذا تكالب الضعف السياسى من الداخل والخارج وزاد (البلاء) بخيانه (الأبناء) فزاد الرهق السياسى ووقعت الأمة تحت سنابك خيول الأعداء مقهورة جريحة .. بجريرة (الإبن العاق) ...

---

١) يراجع التفصيل ص ١٢٨ ص ١٢ م ك (الكامل) لابن الأثير .
٢) يراجع ص ٦٤ ص ١ من كتاب (الكامل) .

وقد تسبب ذلك فى تحول بعض أمراء هذه (الدويلات) إلى مصدر خطر على (جيرانه) من الأمة الإسلامية .

وقد لفت نظر (إبن الأثير) تعرض الأمة الإسلامية للبلاء أكثر من الأمم القديمة ، فنجده يقول عند أحداث عام ٦١٧هـ "لقد ابتلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم"[١].

البلاء والشديد ...

وهل يمكننا أن نتصور بلاء تتعرض له (الأمة الإسلامية) أشد من بلاء خيانه الحكام فى الدويلات الممزقة .

حتى نجد بعض هؤلاء يزيد من الضعف السياسى للأمة الإسلامية فيستدعى (اعداء الإسلام) على أمته فنجد من المؤرخين من يذكر لنا : أن الصليبيين الذى اضعفوا الأمة سياسيا ، قد قام بإستدعائهم بعض أبناء هذه الأمة .

يقول إبن الأثير ...

"وقيل : إن فى سبب مجئ الصليبيين للشرق – أن اصحاب مصر من العلويين – يقصد الدولة الفاطمية – لما رأوا قوة الدولة السلجوقية – سياسيا – وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام وغزة ، ولم يعد بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخولها وحصرها ..

خافوا – أى الفاطميين – وأرسلوا إلى الفرنج – الصليبيين – يدعونهم بالخروج إلى الشام ليملكوها ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين[٢].

وهكذا تكالب الضعف السياسى من الداخل والخارج وزاد (البلاء) بخيانه (الأبناء) فزاد الرهق السياسى ووقعت الأمة تحت سنابك خيول الأعداء مقهورة جريحة .. بجريرة (الإبن العاق) ...

---

١) يراجع التفصيل ص ١٢٨ ص ١٢ م ك (الكامل) لابن الأثير .
٢) يراجع ص ٦٤ ص ١ من كتاب (الكامل) .

موجات الضعف الخطيرة ..

رغم أننا أشرنا إلى وجود الأسباب التى تقتضى مجئ الضعف السياسى للأمة .. بل وزيادته بدرجة تجعله يسرع فى المجئ .

فإن هذه الأسباب كانت ثقيلة على الأمة الإسلامية : ثقلا لم يعهد قبله فى الأمم السابقة .

وكأن هذه (الأمة) قد تميزت بالبلاء والنكبات أكثر من غيرها ليدرك الناس جميعا : خصائص هذه الأمة وما تتميز به .. فإن (الصمود) فى الاختبار والبلاء والبقاء بعد (الطوفان) والكوارث هو الذى يعطى (الأمم) نسيج صلاحيتها وقوة بنائها .

واعتقد أنه يجب علينا أن نشير إلى أخطر (الهجمات) الشرسة التى تعرضت لها بقوة وضراوة وخطة منظمة وعناية محددة أعلنت عنها (قيادة) هذه الهجمات وهى القضاء نهائيا على الأمة الإسلامية .

وقد شجع قادة هذه الهجمات على ذلك ما لحظوه فى التاريخ السابق من إنهيار الأمم السابقة تحت وطأة الهجمة المنظمة التى تستهدف تفتيت الأقاليم والقضاء على الأمم .

ومن هنا وجدنا أهل الحرب المدربين على القتال وفنونه يضعون (الخطط) الحربية ويدعمون من (أممهم) بالمال والرجال ويأتون من بلادهم بغاية محددة هى القضاء على الأمة الإسلامية .

ونحن هنا لن نلتفت بالتفصيل إلى عرض الأسباب والدواعى التى حركت هذه الهجمات ،ولكننا فقط يكفى أن نشير إليها فقد صارت من الشهرة بحيث أعلنت عن دوافعها فى ثنايا التاريخ .

ولكن يكفى فقط التاكيد على (هدف) هذه الموجات الشرسة وهو القضاء على الأمة الإسلامية واستئصال شافتها لتكون مثل الأمم السابقة أثرا بعد عين وصفحة فى التاريخ وأن يلحق بها الفناء وأن يتلاشى وجودها فى الحياه .

موجات الضعف الخطيرة ..

رغم أننا أشرنا إلى وجود الأسباب التى تقتضى مجئ الضعف السياسى للأمة .. بل وزيادته بدرجة تجعله يسرع فى المجئ .

فإن هذه الأسباب كانت ثقيلة على الأمة الإسلامية : ثقلا لم يعهد قبله فى الأمم السابقة .

وكأن هذه (الأمة) قد تميزت بالبلاء والنكبات أكثر من غيرها ليدرك الناس جميعا : خصائص هذه الأمة وما تتميز به .. فإن (الصمود) فى الاختبار والبلاء والبقاء بعد (الطوفان) والكوارث هو الذى يعطى (الأمم) نسيج صلاحيتها وقوة بنائها .

واعتقد أنه يجب علينا أن نشير إلى أخطر (الهجمات) الشرسة التى تعرضت لها بقوة وضراوة وخطة منظمة وعناية محددة أعلنت عنها (قيادة) هذه الهجمات وهى القضاء نهائيا على الأمة الإسلامية .

وقد شجع قادة هذه الهجمات على ذلك ما لحظوه فى التاريخ السابق من إنهيار الأمم السابقة تحت وطأة الهجمة المنظمة التى تستهدف تفتيت الأقاليم والقضاء على الأمم .

ومن هنا وجدنا أهل الحرب المدربين على القتال وفنونه يضعون (الخطط) الحربية ويدعمون من (أممهم) بالمال والرجال ويأتون من بلادهم بغاية محددة هى القضاء على الأمة الإسلامية .

ونحن هنا لن نلتفت بالتفصيل إلى عرض الأسباب والدواعى التى حركت هذه الهجمات ،ولكننا فقط يكفى أن نشير إليها فقد صارت من الشهرة بحيث أعلنت عن دوافعها فى ثنايا التاريخ .

ولكن يكفى فقط التاكيد على (هدف) هذه الموجات الشرسة وهو القضاء على الأمة الإسلامية واستئصال شافتها لتكون مثل الأمم السابقة أثرا بعد عين وصفحة فى التاريخ وأن يلحق بها الفناء وأن يتلاشى وجودها فى الحياه .

اولا : الحروب الصليبية (١٠٩٦م : ١٢١٩م) :

تعرضت الأمة الإسلامية لهجمة ضارية وفدت عليها من أوروبا تحمل (الصليب) شعارا لتفصح عن نيتها فى أنها (حرب دينية) تستهدف القضاء على الأمة الإسلامية .

فعندما هزم (السلاجقة) الدولة (البيزنطية) عام ١٠٧١م استنجد (البيزنطيون) بدول غرب أوروبا المسيحية رغم اختلاف المذهب المسيحى وشجع (البابا) هذه الهجمة تعبيرا عن مباركة الكنيسة للقضاء على المسلمين .

وشهدت الأمة الإسلامية على مدى (قرنين) من الزمان حروبا قوية هزمت فيها (السلاجقة) فى آسيا الصغرى – تركيا – واستولى الصليبيون على (الرها) فى شمال العراق وانطاكية ودخل الصليبيون (بيت المقدس) ليحقق حلمهم الكبير ١٠٩٩م.

وقامت الأمة الإسلامية من جراحها تدفع عن نفسها هذه الهجمة ، ولمع فى تاريخ الأمة الإسلامية (عماد الدين بن زنكى) حاكم الموصل و(صلاح الدين الأيوبى) و (محمود بن عماد الدين زنكى) واستردت بيت المقدس ١١١٧م .

وإن موقعة (حطين والمنصورة) وأسر (لويس التاسع) شواهد ثابته على نهوض الأمة الإسلامية من (كبوة) الهجمة الصليبية .

يقول إبن كثير عن ٦٩٠هـ : (وفيها فتحت (عكا) وبقية السواحل التي كانت بأيدى الفرنج من مدد متطاولة ولم يبق لهم حر واحد[1]).

وهكذا عاد جالب (الضعف السياسى) ضعيفا وقد قويت الأمة عليه واستعادت ملامحها الكامنة فى أعماقها على يد (الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاون ٦٩٠هـ) وتلاشت الغمة وبقيت الأمة ...

---

[1]) يراجع ص ٣١٩ ص ٣ من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير ومعنى (لم يبق لهم حر واحد) اى : صاروا كلهم (اسرى حرب).

ثانيا : المغول .. "التتار" .

المغول قبائل بدائية شرسة خرجت من أطراف الصين متجهه إلى بلاد التركستان ، ثم بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما .

ففعلوا بكل بلد وإقليم ومدينة الأهوال والدمار ثم قتلوا النساء والأطفال والرجال ودمروا كل مكان وصلوه فحرقوه واعملوا فى أهله التقتيل وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنه ونشروا الرعب أمام الفارين ليتناقل الناس مدى قسوتهم فينشر الرعب فى الأمه الإسلامية كلها ، حتى تستسلم بلا قتال .

والعجيب أنه عندما كانت تستسلم ، كان (التتار) يقتلون كل (المستسلمين) بعد وضع الأسلحة وأخذ عهود الأمان ،ولكن ممن الأمان...؟

والمغول قبائل (وثنية) ليس لها عقيدة أو خلق وإنما هى جحافل بدائية حركتها (البطون) والأطماع وقد عبرت هذه الجحافل المغولية إلى (خراسان) بفارس فخربوها وعاثوا فيها فسادا وقتلا ونهبا وتخريبا .

ثم ذهبوا إلى الرى وهمذان ووقفوا على حدود العراق .

وكل هذه الهجمة الخطيرة التى فتكت بالأمة الإسلامية قام التتار بها فى مدة وجيزة (اقل من سنة) .

ويتعجب (ابن الأثير) من ذلك فيقول (إن هذا لم يسمع بمثله) يقصد أن (الأمم) السابقة لم تتعرض لما تعرضت اليه الأمة الإسلامية على يد (التتار) .

ثم تحركت بعض الفيالق إلى (غزنة) المسلمة وفتكت بأهلها ودمرتها مع ما يجاورها من بلاد الهند المسلمة وسجستان وكرمان فهتكوا الاعراض وسفكوا الدماء ونهبوا الاموال وبثوا الرعب فى أرجاء الأمة الإسلامية ونشروا الفزع وبلغ الضعف السياسى مداه ولكن (المأساة) المغولية بلغت ذروتها وأقصاها بسقوط (بغداد) ٦٥٦هـ (عاصمة الخلافة والدولة).

سقوط بغداد على يد التتار سنة ٦٥٦هـ .

بسقوط بغداد سنه ٦٥٦هـ على يد المغول ذهبت الخلافة العباسية من العراق ، وقد كان هذا السقوط كما يقول الباحثون : "تعجيل هذا المصير الذى كان حتما مقضيا لعوامل مختلف أهمها :-

ما وصلت اليه الدولة من الضعف والفرقة .. ويكفى أن نشير إلى الصراع بسبب الجنس والنزاع العنيف بسبب اختلاف العقيدة ، سنة وشيعة ، أو المذهب الدينى - شافعية وأحناف - وانصراف بعض الخلفاء ورجالات الدولة نحو ضرب من الحياة انساهم الواجب عليهم لأمة العروبة والإسلام[١].

ويذكر (إبن كثير) فى حوادث سنه ٦٥٦ هـ أن وزير الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ويدعى : مؤيد الدين - للأسف محمد بن العلقمى وهو من (الرافضة) كان يكن العداء لأهل السنة فأهاجه العداء فدبر للإسلام وأهله (ما وقع للإسلام من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ ابشع منه منذ بنيت بغداد[٢]).

وقد أزال التتار بدخول بغداد معالم الحضارة الإسلامية والثقافة فقد تسامعوا أن (الأمة الإسلامية) قوتها فى (الفكر) و (العلم) ففعلوا شيئا لم نر مثيلا له فى التاريخ - عدا حرق مكتبه الإسكندرية[٣] فقد أتوا بالكتب الموجودة ببغداء ورموها فى النهر ليقضوا بذلك - فى تصورهم - على مصدر النور فى الأمة الإسلامية ، وسيظل التاريخ يضع أسم (هولاكو) قائد المغول الذى اسقط بغداد ودمر (المكتبة) فى أحط صفحاته .

يتبق الباحثون (أن سقوط بغداد سنه ٦٥٦هـ على أيدى التتار هو النتيجة الطبيعية التى تمخض عنها ضعف الدولة العباسية[٤].

---

١) يراجع ص ١٤ من كتاب (ابن تميمة) للدكتور محمد يوسف موسى ، نشر بيروت .

٢) يراجع ص ٢٠١ ص ١٢ من كتاب (البداية والنهاية) لابن كثير .

٣) والطريف انها احرقت على يد الغزاء الوافدين من الغرب .

٤) يراجع ص ٣٥٨ من كتاب (ابن تميمة والتصوف) للدكتور محمد مصطفى حلمى .

وما أن جاءت سنه ٦٥٨هـ حتى صارت الأمة الإسلامية تحت سلطان (هولاكو) ملك التتار واصبح طريقه مفتوحا إلى الشام فدخلوا (حلب) و (دمشق) وجاسوا خلال الديار وقد نقلوا الرعب إلى قلوب الأهالى أبناء أمة الإسلام .

ووصل التتار إلى (غزة) متجهين إلى (مصر) بقيادة (هولاكو) الذى أرسل إلى السلطان المظفر (قطز) يهدده بقسوة .

ولنا فى الفاظ (الرسالة) ما يخبرناعن حال ضعف الأمة الإسلامية وطغيان الموجة التتارية وتسلطها .

ويقول هولاكو للسلطان قطز (من ملك الملوك شرقا وغربا) ثم يقول (فعليكم بالهرب وعلينا الطلب فأى أرض تأويكم وأى طريق ينجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص)[١].

وهذا النص يعطينا بوضوح لأى : مدى وصل إليه ضعف الأمة الإسلامية وكثافة ما تعرضت له من وسائل الهلاك والدمار .

نهاية التتار :

فى الجو الخانق المؤذن بالدمار والضياع تستيقظ الأمة الإسلامية بطريقة عجيبة ويرفض (قطز) التهديد ويخرج لملاقاة (التتار) فى عسكر الأمة الإسلامية ويتلاقى الجمعان فى موقعة (عين جالوت) سنه ٦٥٨هـ ١٢٦٠م) .

ويذكر المقريزى أن (قطز) عندما لاحظ انخلاع قلوب الجند من سريان (الرعب) الذى بثه التتار فى جوانب الحياة الإسلامية وأن جيشة قد زلزل زلزالا شديدا (ألقى خوذته وصرخ بأعلى صوته : (واسلاماه) – ثلاث مرات – (يا الله أنصر عبدك قطز على التتار)[٢].

وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة كان يعدها نصر الله المبين.

واستشهد قطز تحت سنابك الخيل ولم يعثر عليه.

---

١) يراجع ص ٤٥ ص ٢ من كتاب (تاريخ الإسلام السياسى) الدكتور / حسن ابراهيم حسن

٢) يراجع ص ٤٢٧ ص ١ من كتاب (السلوك) للمقريزى .

ولما بلغ (هولاكو) ما لحق بجيشه على يد الأمة الإسلامية بعين جالوت أرسل جيشا فى عهد الملك الظاهر (بيبرس) الذى خلف (قطز) وهزم (بيبرس) هذا الجيش وقتل (قائده) (كتبغا) ففر التتار وألقوا ما معهم من متاع وأطلقوا الأسرى وطاردهم المسلمون فقتلوا وأسروا الكثير منهم.

ولما بلغ (هولاكو) كسر جيشه عظم عليه ذلك وهو المتغطرس بعسكره الذى لم يكسر قط قبل ذلك فحزن حزنا شديدا ورحل من يومه.

وهكذا هزم الله التتار على يد الأمة الإسلامية التى تجمعت وتماسكت فى قوة رائعة وخرجت من المأساة قوية ، وبذلك تلاشت الغمة وبقيت الأمة ...

ثالثا : الهجمة الأوروبية الحديثة .

فوجئت الأمة الإسلامية وهى تعانى من أسباب الضعف السياسى إثر سياسات (المماليك) وتفكك الإمارات والأقاليم بموجة (عسكرية) قوية تجتاح شواطئ الأمة الإسلامية وقد تسلحت بسلاح (معاصر) عرفه المسلمون قبل اوروبا منذ القرن السادس الهجرى فى عهد (صلاح الدين الأيوبى) ولكن للأسف أهملوه صناعة وتطويرا وهو (البارود).

فقد جاء (نابليون) يغزو الشرق وقد هجم بالمدافع النارية المتطورة والتى حجمت (مساحة) الشجاعة الشرقية وثبات القلوب فى ملاقاة الأعداء فقد انعدمت فرصة (التكافؤ) وصار المدفع الأوروبى هو الذى يقاتل (الإنسان المسلم) وتلك كارثة بكل المقاييس .

وللأسف مازالت الأمة الإسلامية تحتاج إلى تجميع قومى للخروج من مشكلة الحاجة إلى (السلاح) المتطور من يد أعداء الأمة .

وإن كانت تجربة (ترسانه) محمد على باشا بالإسكندرية تعطينا موقفا رائعا لهذا الرجل العظيم ولولا مؤتمر (لندن) الذى عقد سنة ١٨٤٣م لتجريد (مصر) من صناعة السلاح لكان لخريطة الشرق شأنا آخر اليوم.

وأعتقد أن هذا (الفلك) المعاصر الذى فرض على الأمة الإسلامية سيدور يوما ما مثلة مثل بقية (الافلاك) الذى شاء الله تعالى أن جعلها (متحركة) بل و (دائرة) وأن غدا لناظره قريب .

وقد (أحتل) الفرنسيون الشرق وحصلوا من شأن الأمة وعانوا فيها فسادا ، ولكن المقاومة المسلمة تمكنت فى النهاية من إخراج هذا الاحتلال الجديد . وتلاشت الغمة وبقيت الأمة .

ثم عادت اوروبا فى ثوب (بريطانيا) تحتل البلاد الشرقية المسلمة وتقهر الناس وتفتت وحدة الأمة .

ولكن المقاومة المسلمة طردت هذا الاستعمار مرة ثانية وما أن انتصف القرن (العشرين) حتى تطهرت الأمة المسلمة من آثار الضعف السياسى الذى كانت تعانية بسبب الضعف العسكرى والاحتلال وتلاشت الغمة وبقيت الأمة .

ولكن (عاد) الاستعمار فى صورة جديدة (براقة) لا يحمل مدفعا ولا سيفا ولكنه يحمل ابتسامة صفراء وقلبا أسود يكن العداء .

وإن حلقات التاريخ تحدثنا أن (الاستعمار الجديد) سوف يلحق بمن سبقه ويعود خائبا مدحورا بينما الامة الاسلامية أشد ترابطا وتماسكا .

ويومها سنقول كما قلنا : تلاشت الغمة وبقيت الأمة .

رابعا : هجمات فكرية ونفسية :

ويمكننا أن نضم إلى ذلك : تلك الهجمات المنظمة التى استهدفت الأمة الاسلامية لالقاء عوامل الضغف فى كيانها وبذلك تكون (ممسوحة) منقادة .. أو (ممسوخه) الهوية تائهة .. وهذا من أشد أنواع الضعف للأمم لأن ضياع الهوية هو قتل للذات والذاتية والهوية أهم خصائص الأمة أى أمة .

وقد وجدنا العصر الحديث يصدر للأمة الإسلامية أنواعا جديدة من التيارات التى تعمل على إضعاف الأمة ، ومن هذه التيارات :-

١ - تيار العلمانية .
٢ - تيار الشيوعية .
٣ - تيار العولمة .

٤ - تيار التغريب .
٥ - تيار الاستشراق
٦ - تيار الانبهار بالقوى الاجنبية .
٧ - تيار التخريب من القوى الأخرى .
٨ - تيار التخلف الفكرى والحضارى .

وهذا كله من خلال (إعلام) موظف وكوادر (مدربة) ...

محاولة تلمس سبب البقاء ...

وإذا كنا قد حاولنا من خلال التطواف فى التاريخ أن نبرز تميز الأمة الإسلامية بالبقاء والحفاظ وأنها خالفت القانون الذى يجوى على الأمم كلها .

فإن لنا ان نحاول نلمس السبب الذى أعطاها (سر) البقاء وجعلها متأبيه على الفناء والانهيار .

وقد نكرر عرض منهجنا فى أننا لا نتلمس سبب حفظ (دين) الأمة الإسلامية .. فذلك محظوظ بوعد الله تعالى الذى لا يتخلف .

نعى الأمة .

وأنما التلمس يدور فى بقاء (الأمة) كوجود وحضور وحضارة وانها لم تنقطع من التاريخ قط رغم ما جرى لها من أهوال أرعبت المؤرخين وكادوا يكتبون (نعى) الأمة الإسلامية وزوالها .

يقول ابن الاثير وهو فى معرض حديثه عن (التتار) وسقوط بغداد (لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين)[1].

من نعى التاريخ :

ورغم هذا كله فإن التاريخ لم يكتب (نعى) الأمة الإسلامية وإنما كتب (نعى) أعدائها وهذا واضح لمن يقلب صفحات التاريخ .

---

[1]) يرجع ص ٦٨ ص ١ من كتاب (الكامل) لابن الاثير.

استعراض اسباب البقاء :

وإذا استعرضنا الأسباب التى تعتمد عليها الأمة فإننا نجد أن هذه الأسباب وجدت فوجدت الأمة وتلاشت فضعفت (الأمة) ولكن المثير حقا أن (الأمة) لم تتلاشى وظلت (باقية) ترقب عصر (النهوض) كالمريض الذى يرقب لحظة (البرء) والشفاء.

وإذا نظرنا إلى (القوى) التى يمكن أن تسهم فى بقاء الأمة وتكون موجودة فى فترات الضعف السياسى وأردنا تصنيفها فماذا نجد؟

١ – العلماء : وهم صناع العقول تشل حركتهم بضعف الأمة لأن العلم يثرى بثراء الأمة ورعايته الحكام له وحيث الضعف يضعف .

٢ – الفقهاء : وهم حفظة شريعة الأمة لا يملكون الا تقديم الفتاوى والأحكام ولذلك يكونون عرضة للقتل والتشريد والتعذيب واغلبهم معروف لدى (الطغاة الأعداء) فيمسكونهم كالمذنبين ويقتلونهم والتاريخ ملئ بقتل الفقهاء ، وفرار أكثرهم إلى بلاد اخرى .

٣ – التجار : تنهب أموالهم وتحرق متاجرهم فيفرون نجاة بأرواحهم فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون .

٤ – فلول الجند : رغم أن (الجندية) تحرق صاحبها الىالنصر فإن (الجندى المهزوم) يكون (جريح) الصدر ويحتاج إلى (زعامة) تقوية (وقيادة) تستثمر جرحة ولكن (هيهات) وهذا وسط موجات القتل والسفك ،وبث الرعب بين الرعية وبين آراء الولايات المترامية .

٥ – الأمراء والحكام : وهم الفئة التى تتعلق بهم أنظار الباحث ليعيدوا تنظيم (الأمة) للوثوب إلى (تحرير) الوطن ولكن هؤلاء لا تمتد اليهم (الثقة) ومن (الأمة) فهم فى نظرها السبب الحقيقى فى ضياع وضعف الأمة والواعى منهم تم قتله والتمثيل بجثته فى الغزاة . ولما كان فاقد الشئ لا يعطيه فإن هؤلاء كانوا من الضعف والخوف والرعب ما يجعلهم فى وضع (الشك) الذى لا يرقى أبدا إلى (ثقة) الرعية فيهم على الإطلاق . ولعل هذا يوضح لنا : لم كانت (الأمة) تتعلق بعد كل (كارثة) إلى (قادة) جدد وذاعت فكرة (المهدى المنتظر) كتنفيس عن (الخلاص) الآتى

بمدد السماء مع أن الله تعالى علم الأمة الإسلامية أن كيانها محفوظ بالأخذ بالأسباب ، ويكفى لهم ملاحظة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعداء فى سبيل تكوين (الأمة) الحضارية كدولة وإمبراطورية – إن رضينا هذا التعبير .

٦ – الشعراء : وهؤلاء حفظ لنا التاريخ دورهم فى وصف الكوارث وصياغة الشعر .. الذى يحث على (الثورة) وبعضه يحث على الصبر وبعضه يصدر من غرض (المراثى) ولكن هؤلاء الشعراء كانوا غارقين فى اغراض التشبيب والنسيب والخمريات وأرفعهم غارق فى مدح الولاة والسلاطين والتكسب بشعره فوضعتهم الأمة الإسلامية فى فترة قوتها فى إطار قول الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون).

٧ – الصوفية : نحن هنا لا نستعرض تاريخ التصوف فى الأمة الاسلامية ولا نناقش التصوف من حيث الأصالة والتقليد[١] ... فتلك أمور كشفت عنها (أتون) مرحلة الضعف السياسى .

فقد لاحظت أن التصوف المؤصل على قواعد الشرع الإسلامى النابع من وجدان الأمة الإسلامية هو الذى ثبت فى معركة البقاء والوجود .

أما التصوف الدخيل الذى فوجئت به الأمة الاسلامية مدسوسا على وجدانها ... فإنه ظهر على حقيقته المؤسفة فى معركة البقاء التى خاضتها الأمة الإسلامية .

بل لاحظت أن الفكر الفاسد والآراء الضالة والزندقة لاتطل برأسها الا فى حالة الضعف السياسى ، وكأن كمونها ينتظر لحظة الخروج ليزيد من ضعف الأمة[٢].

---

١) راجع التفصيل فى ذلك : كتاب (التصوف فى الميزان) للدكتور / مصطفى غلوش ، منشور مكتبه النهضة بالفجالة.

٢) حتى فى التاريخ الحديث : نجد الفتن تطل برأسها ويستقوى الضعفاء فى كل حقبة تصورا فيها أن الوطن يمر بمراحلة حرجة ، وان سحبا من الضعف السياسى تتراكم فى الحبك ، وأن تنزل هذه السحب حتى يعود الأمر إلى سكونه ، فتسكن الفتن بتلقائية ، والحقبة : انها ليست تلقائية ، ولكنها كمون وانتظار

بمدد السماء مع أن الله تعالى علم الأمة الإسلامية أن كيانها محفوظ بالأخذ بالأسباب ، ويكفى لهم ملاحظة جهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعداء فى سبيل تكوين (الأمة) الحضارية كدولة وإمبراطورية – إن رضينا هذا التعبير .

٦ – الشعراء : وهؤلاء حفظ لنا التاريخ دورهم فى وصف الكوارث وصياغة الشعر .. الذى يحث على (الثورة) وبعضه يحث على الصبر وبعضه يصدر من غرض (المراثى) ولكن هؤلاء الشعراء كانوا غارقين فى اغراض التشبيب والنسيب والخمريات وأرفعهم غارق فى مدح الولاة والسلاطين والتكسب بشعره فوضعتهم الأمة الإسلامية فى فترة قوتها فى إطار قول الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون).

٧ – الصوفية : نحن هنا لا نستعرض تاريخ التصوف فى الأمة الاسلامية ولا نناقش التصوف من حيث الأصالة والتقليد[١] ... فتلك أمور كشفت عنها (أتون) مرحلة الضعف السياسى .

فقد لاحظت أن التصوف المؤصل على قواعد الشرع الإسلامى النابع من وجدان الأمة الإسلامية هو الذى ثبت فى معركة البقاء والوجود .

أما التصوف الدخيل الذى فوجئت به الأمة الاسلامية مدسوسا على وجدانها ... فإنه ظهر على حقيقته المؤسفة فى معركة البقاء التى خاضتها الأمة الإسلامية .

بل لاحظت أن الفكر الفاسد والآراء الضالة والزندقة لاتطل برأسها الا فى حالة الضعف السياسى ، وكأن كمونها ينتظر لحظة الخروج ليزيد من ضعف الأمة[٢].

---

١) راجع التفصيل فى ذلك : كتاب (التصوف فى الميزان) للدكتور / مصطفى غلوش ، منشور مكتبه النهضة بالفجالة.

٢) حتى فى التاريخ الحديث : نجد الفتن تطل برأسها ويستقوى الضعفاء فى كل حقبة تصورا فيها أن الوطن يمر بمراحلة حرجة ، وان سحبا من الضعف السياسى تتراكم فى الحبك ، وأن تنزل هذه السحب حتى يعود الأمر إلى سكونه ، فتسكن الفتن بتلقائية ، والحقبة : انها ليست تلقائية ، ولكنها كمون وانتظار

وإن قراءة فى تاريخ الفرق والأحزاب الدينية ، بل ومن قبل فى اسباب حروب الردة لتعطينا الشواهد التى يمكن أن تنطق بذلك .

وما كان (القرامطة) وغيرها و(الحلاج) ومثله من الحلولية ليظهروا الا فى فترات الضعف السياسى بل قد نجد (الفرصة) لنعوض بشئ من التفصيل لموقف (الحلولية) من اعداء الامة ... وكيف كانوا رأس جسر لعبورها اثناء الحروب الصليبية وهجمة التتار .

ولنا فى استعراض حياة (الطوسى) الصوفية وعلاقته (بهولاكو) وكيف اتخذه (هولاكو) وزيرا له ومستشارا بعض القناعات على صدق ما نذهب اليه[١].

ومن هنا فإننى أحدد وجهتى هنا : بأننى اقصد بالصوفية الطائفة التى عاشت بهدى القرآن الكريم والسنه النبوية المطهرة ولم تتأثر بدخيل ولا تقليد .

وإنما نبع تصوفها من خلال (وجدان) الأمة فقد رأت (الخير) والقوة والحياة تسير فى تركيب الدولة والدين وتطامنت إلى ما فيه أمتها من خيرات ونعيم ورفاهية فأعترضت عن هذا كله (زهدا) وتعبدا.

وقد سلك (الصوفية) فى الأمة الإسلامية سبيل الزهد فى دائرة (جهاد النفس) فقد صح لديهم الأثر القائل : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .. وهو جهاد النفس) .

وسواء وافقهم كتب الحديث على نسبة هذا (الأثر) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم لم توافقهم ، فقد صح لديهم (حكمته) واعتبروا (جهاد النفس) من أفضل القربات إلى الله تعالى وعاشوا فى عزلة من مباهج الدنيا يعبدون الله فى زهادة وكان (جل) جهادهم البعد عن الشهوات والرفاهية .

وهؤلاء الذين يرقبون الله فى السر والعلن .. كانوا أقرب إلى الله تعالى بتخليهم عن كل رغبة وشهوة من مال وأهواء .. وتحليهم بكل طاعة وقرب من الله تعالى .

---

١) عن هذه العلاقة ، وكيف اوقع البعض عنها وكيف رد هذا الدفاع يراجع كتاب د/ حسن حسن (تاريخ الاسلام السياسى) ورسالة الطوسى .

وإن قراءة فى تاريخ الفرق والأحزاب الدينية ، بل ومن قبل فى اسباب حروب الردة لتعطينا الشواهد التى يمكن أن تنطق بذلك .

وما كان (القرامطة) وغيرها و(الحلاج) ومثله من الحلولية ليظهروا الا فى فترات الضعف السياسى بل قد نجد (الفرصة) لنعوض بشئ من التفصيل لموقف (الحلولية) من اعداء الامة ... وكيف كانوا رأس جسر لعبورها اثناء الحروب الصليبية وهجمة التتار .

ولنا فى استعراض حياة (الطوسى) الصوفية وعلاقته (بهولاكو) وكيف اتخذه (هولاكو) وزيرا له ومستشارا بعض القناعات على صدق ما نذهب اليه[1].

ومن هنا فإننى أحدد وجهتى هنا : بأننى اقصد بالصوفية الطائفة التى عاشت بهدى القرآن الكريم والسنه النبوية المطهرة ولم تتأثر بدخيل ولا تقليد .

وإنما نبع تصوفها من خلال (وجدان) الأمة فقد رأت (الخير) والقوة والحياة تسير فى تركيب الدولة والدين وتطامنت إلى ما فيه أمتها من خيرات ونعيم ورفاهية فأعترضت عن هذا كله (زهدا) وتعبدا.

وقد سلك (الصوفية) فى الأمة الإسلامية سبيل الزهد فى دائرة (جهاد النفس) فقد صح لديهم الأثر القائل : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .. وهو جهاد النفس) .

وسواء وافقهم كتب الحديث على نسبة هذا (الأثر) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم لم توافقهم ، فقد صح لديهم (حكمته) واعتبروا (جهاد النفس) من أفضل القربات إلى الله تعالى وعاشوا فى عزلة من مباهج الدنيا يعبدون الله فى زهادة وكان (جل) جهادهم البعد عن الشهوات والرفاهية .

وهؤلاء الذين يرقبون الله فى السر والعلن .. كانوا أقرب إلى الله تعالى بتخليهم عن كل رغبة وشهوة من مال وأهواء .. وتحليهم بكل طاعة وقرب من الله تعالى .

---

[1]) عن هذه العلاقة ، وكيف اوقع البعض عنها وكيف رد هذا الدفاع يراجع كتاب د/ حسن حسن (تاريخ الاسلام السياسى) ورسالة الطوسى .

وقد عاشت هذه (الطائفة) فى الأمة الإسلامية بعيدة عن مجالس الحكام والسلاطين ، لا تضرب فى الأسواق ولاتسعى نحو طلب مطلوب .. لأن مطلوبهم هو (حب الله) وهو مطلب (وجدان) يجدونه فى كل زمان ومكان . وله (حلاوة) تفوق الدنيا وطلاوة تطرب الوجدان .

وقد لفت نظرى أن هؤلاء الصوفية كانت لهم حياتهم الصوفية الخاصة بمعناها المتفرد ، فلم (يقلدوا) العلماء ولا الفقهاء ولا الشعراء ولا الأمراء .. وإنما كانوا يريدون أن يكونوا (دون) ذلك جميعا فكانوا بسلوكهم (فوق) ذلك جميعا .

<u>الصوفية وقت المحن .</u>

لذلك لم يكن عجبا أن نجد (الصوفية) وقت (المحن) والكوارث التى تتعرض لها (الأمة) أول الناس (خروجا) من العزلة ومجافاة لمنهج (الصوفية) فى العزلة وهجرا للزوايا وتركا للوحدة والإنفراد .

وإنما هم يوسعون معنى (الجهاد) وهو (ايسر) عليهم لان جهاد أعداء الأمة الإسلامية . أيسر عليهم من جهاد النفس الأمارة بالسوء .

وقد نحب أن نوصل موقفهم تجاه ضعف الأمة أمام أعدائها فى هذه الأمور :-

١ - شرح معنى (الجهاد) للناس .
٢ - الخروج من (العزلة) إلى الامة ,
٣ - هجر (التفرد) إلى (المريدين) .
٤ - ترك (الاختلاط) إلى تكوين أبناء (الطريق) .
٥ - ترجمة (حب الله) إلى : حب لقائه ، بالموت فى سبيله.
٦ - الثقة فى النصر بحساب (الكشف) النابع من مثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم") (محمد:٧)
٧ - لم ترهبهم وسائل الأعداء (ولم يقعدهم ما أقعد صالحى الأمة) لأن مرادهم فى الله .. مناف للخوف من غيره ...

ومن هنا لو سألنا أنفسنا من حفظ الأمة وقت الضعف السياسى وحافظ على وحدتها ؟

فلن نجد جوابا سوى : أنهم الصوفية الذين عاهدوا وصبروا وجاهدوا وسطر لهم التاريخ اطهر الصفحات فى مقاومة اعداء الأمة الإسلامية .

سلاح المقاومة الصوفى :

واذا جئنا إلى تساؤل يقول :

بم قاوم الصوفية أعداء الأمة الإسلامية وهم (عزل) من السلاح ولم يخالطوا أهل القتال والجيوش ...؟

وإذا كان للفقهاء (الفقه) وللعلماء (العلم) وللشعراء (القصيد) وللأمراء (الصولجان) وللعسكر (الآله والنشاب) فما هى (آلة) سلاح المقاومة لطائفة الصوفية ...؟

نستطيع أن نركز على أن (الصوفى) كان يتصل بمريديه فى حال السلم من منطلق (الوجدان).

فالمريد يذهب إلى (شيخه) فيجلس إليه فينهل من عطائه الوجدانى ويرشف من نقاء صفائه ويسمر فى جلال قدس الأنوار ويبدع جميل الازهار فيمتلئ الوجدان بالحب لله تعالى وللكون العظيم الذى خلقه الله وأبدعه .

والصوفى فى هذا كله لا يسأل الناس : أجرا .. إلا المودة فى القربى فكان له ما أراد . فوده الناس ... واقتربوا منه حبا وصارت العلاقة بين (الشيخ والمريد) علاقة حب ووجدان أو علاقة (وجدان به حب) (فاثمر هذا كله الشئ الرائع الذى صار سلاحا خطيرا فى يد (الصوفية) يقاومون به (اعداء) الأمة الإسلامية وهو (الثقة) فقد وثق المريد) بشيخه وصدقه وظن به الخير وأحس فيه الغيرة على الأمن والوطن وسلامة الأمة) .

ولسنا بصدد : المقارنة بين (الثقة) فى المتصوفة .. وفقدان هذه الثقة فى (الفئات) الأخرى .

وانما يكفينا ملاحظة : انصراف (عامة) الأمة الإسلامية عن هذه (الفئات) الاخرى والتجائهم – بعد الله – بل بتوفيق الله – إلى طائفة الصوفية .

وكان (الصوفية) عند حسن الظن ، فقد هبوامع الأمة الجريحة وربطوا على قلبها وأهاجوا (الجهاد) فى وجدانها وصرفوا الناس إلى (البناء) الحقيقى للأمة وهو (الوجدان) فاستيقظ فى الناس ما كان خاملا وهتف ما كان (خافتا) ووثق الناس بنصر الله وعلموا أن حياه الامة فى (الشهادة) فى سبيل الله والتف العامة حول الصوفية .

ومن هنا وجدنا (الطرق الصوفية) فى اول عهدها (طلائع) مقاتلة تكون فى مقدمة الأمة ، تستطلع الأعداء وتخبر عن خططه وتنبئ عن تشكيلاته .

وقد أعلمت الصوفية عمليا المعانى الأتية :-

١ – الجهاد بالنفس والمال .

٢ – الرباط فى سبيل الله .

٣ – وإن جندنا لهم الغالبون .

وبذلك : قامت الصوفية بدور هائل فى حفظ الأمة الإسلامية فى فترات الضعف السياسى .

دور التصوف فى حفظ الأمة :

ينبغى علينا أن ندرك أن (التصوف) بدأ فى الأمة الإسلامية لأسباب سياسية ، وهو نصرة الأمة ،والدفاع عن تطورها وإعمالا لقولة صلى الله عليه وسلم (عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله) .

ولنا فى وصف الصدر الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم (رهبان بالليل فرسان بالنهار) مندوحة فى القول بأن انتشار (التصوف) فى الصدر الأول كان بكثرة كاثرة وإن لم يكن بهذا الإسم لم يلفت النظر فى (تدوين) شخوصه أوتبويب قواعده لأن شخصوصه هم الصحابة والتابعون وقواعده مستمدة من القرآن الكريم وسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر المؤرخون : أن السائر ليلا فى العهد الأول فى طرقات المدينة المنورة كان يسمع فى جوف الليل الذكر وتلاوة القرآن الكريم فى كل البيوت كأنه (دوى النحل) .

ولذلك : فإن (الإحسان) الذى فهمه الصحابه من حديث جبريل عليه السلام ، جعل هذه (الطائفة) تعبد الله كأنها تراه[١].

ويحدثنا الباحثون فيقولون : (التصوف نشأ إسلاميا ثم زادت صفته الدينية والفلسفية شيئا فشيئا)[٢].

ولذلك : فإننى لا أتصور ان (التصوف) تخلى عن دوره السياسى يومبا (ما) وإنما كان يختفى عندما (تقوى) الأمة ويظهر عندما (تضعف) الأمة .. وإن (الروافد) الإسلامية التى (غذت) التصوف جعلته دوما على (وعى) بمشكلات الأمة الإسلامية ومعاصرتها .

وقد يشاركنا الباحثون القول : بأن الغالب الأعم فى التصوف فى الأمة الإسلامية كان (التصوف) السنى .. أما نقضيه من التصوف (الحلولى) ، فلم يكن إلا رموزا لموجات مرسلة من أعداء الأمة للتمهيد لإضعاف (الأمة) شخوصا .

والكل كان لها بالمرصاد يفضح مدها ... ويعلن (جذورها) .

يقول (ديبور) فى (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) (ولكن التصوف ظل فى الجملة داخل نطاق مذهب أهل السنة ، وقد كان هؤلاء من الحكمة بحيث تغاضوا عن شطحات الشعراء وأصحاب المواجيد .

والمتكلمون وأهل التصوف متفقون تمام الإتفاق فى القول : بأنه لا فاعل فى كل شئ إلا الله تعالى[٣].

ولذلك ندهش من البعض الذى ذكر أن (الغزالى) دافع عن (الحلاج) الحلولى ، وحمل أقواله على محمل حسن[٤].

---

١) يراجع التفصيل فى كتاب (التصوف فى الميزان) للدكتور / مصطفى غلوش

٢) يراجع ص ٢٤٦ من كتاب (فلسفة الإسلام) للدكتور / محمود قاسم .

٣) يراجع ص ٧٣ من كتاب (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) لديبور.

٤) يراجع ص ٢٢٩ ص ٣ من كتاب (تاريخ الإسلام العباسى) للدكتور / حسن ابراهيم حسن

ولم يكن (التصوف يعيش بعيدا عن (الآم) الأمة وكوارثها فقط .. وما غاب عن الأمة الا بجسمه وقت (الرخاء) أما فى الشدائد : فهو معها جسدا وروحا وقلبا وقالبا .

فإن (العقل لديه هو : العقل الواعى (اليقظ الذى لم يخدر بشهوة أو رغبة أو مصلحة ، إنما هى (الفطرة) تحدده وتقوده ...

والغزالى لذلك يخطئ من يتصور أن الاشراق عند الصوفية يلغى الجانب الفعلى عندهم .

ويتساءل الغزالى (لماذا نرى أهل التصوف يغضون من شأن العقل وهو فى هذه الدرجة الرفيعة...؟)

إن السبب فى ذلك : أن الناس استخدموا العقل والمعقول للتعبير عن المجادلة والمناظرة التى يجرى عليها علماء الكلام .

لهذا ذم المتصوفة : العقل والمعقول ... مع أن العقل هو تلك البصيرة الباطنة التى يعرف بها المرء الله تعالى ويعرف صدق رسله..

فكيف يذم العقل وقد اثنى الله عليه ...؟

وإذا ذم العقل ما الذى يحمد بعده ؟

وكيف يذم العقل الذى به يعرف الشرع ...؟

ثم يقول : ... (فعند إشراق نور الحكمة يصير الإنسان مبصرا بالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة واعلم الحكمة كلام الله تعالى[١]).

ولعل (السهروردى) فى كتابه (عوارف المعارف) يكشف لنا عن (معدن) شاهده عن (الصوفية) وهم يفارقون (العزلة) فيقول عنهم:-

(إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة عملهم وصحة حالهم فرأوا الاجتماع فى بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاويته).

---

١) راجع ص ١٨ من ك (مشكاة الأنوار) للغزالى .

وقد علق بعض الباحثين على ذلك : بأن (التصـــوف) تطـــور عبر العصور .. وغفل ذلك الباحث عن انه (تطـــور) مـــع الأزمـــات والكوارث التى حلت بالأمة[١] مع ثبات حقيقته لثبات (متابعة).

ونجد من الباحثين من يرى أن (المتصوف) له دور كبير فـــى حفظ الأمة فى فترة الرخاء والتى (تتزامن) مع (العزلة) فينقل متفقا مـــع (السهروردى والمقريزى) أنهما قالا : (إن المقيم على طاعة الله يدفـــع بدعائة البلاء عن العباد والبلاد)[٢].

نفوذ الصوفية :

وقد كان للصوفية نفوذ هائل عند الناس والعامة وكـــان هـــذا النفوذ السبب فى قدرتهم على توجيه (الأمة) توجيها وجدانيا .

وقد انعكس هذا النفوذ فى هيئة (هيبه) عند (الحكام) سواء فـــى أحوال الشدة أم احوال الرخاء .

يقول الدكتور توفيق الطويل ...

(ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا النفوذ الذى تـــهيأ لشـــيوخ الطريق عند حكام البلد . كان يمثل سلطه الشعب أمام هؤلاء الطغاة.

وبهذا تجلت إرادة الأمة فى أسود الأيام التى سجل فيها التـــاريخ استكانتها لاستبعاد الحكام .

وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئا آخر وهو : رد الظلـــم والكف عن البغى ، ورفع العدوان ، ذلك أن شيوخ الطريق كانوا حلقـــة اتصال بين الشعب المظلوم وحاكمه الجائر ...[٣].

---

١) راجع ص ٤٣ من كتاب (التصوف فى العصر العثمانى) .د. توفيق الطويل .

٢) يراجع رأى السهروردى ص ٥٤ من كتاب (عوارف المعارف) ويراجع رأسى المعزيزى فى كتابه (الخطط) حـ ٢ ، ص ٢٩٢.

٣) راجع ص ٤٠ من كتاب (التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى) د. توفيق الطويل .

أثر نظرية الحب الآلهى فى دور الصوفية .

إن نظرية الحب الآلهى عند الصوفية هى التى جعلت التماسك واضحا فى مناهجهم فإن الحب الألهى هو الذى يحرضهم على الجـــهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وكان جهادهم دائرا فى إطار قول الله تعالى " (إن الله اشـــترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة) وكانت تحكم ســـلوكياتهم مع الأمة ومع أعدائها مثل قوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة علـــى الكافرين).

وهذه النظرية قادتهم إلى نظرية (الزهد) الذى انطلق قـــائلا : بأن وجدان الأمة معان (روحية) بحتة .. إذا تماسك الوجدان تماســـكت الأمة .

وكانت (نظرية الحب الألهى) تدفع الصوفية فى قوة وإيمـــان إلى ثقة متينة من أن (النصر) حليف المجاهدين ، إنطلاقا من وعـــد الله الذى لا يتخلف الوارد فى مثل قوله تعالى (وإن جندنا لهم الغالبون) .

ومن هنا ... انثال الصوفية بين طوائف الامة ويرفعون مـــن روحهم المعنوية ويبشرون بالنصر القريب ويحضـــون النـــاس علـــى الجبهاد ، ويقيلون (العثرة) ويزيلون (الكسرة) ويكافحون مـــن اجـــل زوال الغمة عن الأمة .

وكانت (الثقة) فيهم ... (والثقة) بالله منهم هى الأخرى التـــى حركت الهمم واستنفزت الناس للجهاد فى سبيل الله ...

فإذا بالقوافل المقاتلة تنضوى فى صورة جيوش حقيقية تحمـــل السلاح تخرج لتقاتل فى سبيل الله . غايتها الموت فى ســـبيل الله أو النصر للأمة الجريحة.

وإن قلوبا بهذه الروح المعنوية الرفيعة هـــى القلـــوب التـــى وصفها القرأن الكريم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بـــإذن الله والله مع الصابرين) .

وقد نجح الصوفية فى (تكثير) القلة بقـــوة (الوجـــدان) الـــذى ربطوا عليه كما ربط الله على قلب (أم موسى) كما نجحوا فى تجميـــع (الكثرة) بقوة (الثقة) .

ومن هنا يحكى المؤرخون : أن جحافل المسلمين خرجت لتقاتل أعداء الله والأمة...

ولكن الطريف حقا أنه كان على رأس كل فرقة مقاتله (صوفى) ينادى ويبتهل ويحمل السيف فى سبيل الله لم يدع الصوفى للجهاد ... وهو(قاعد) بل ربط القول بالعمل وأعطى (المثل) والنموذج للثقة فى نصر الله وفى ترابط (الأمة) وبقاء كيانها .

ويطيب لنا : أن نهرع إلى بعض (النماذج) العلمية التى توضح فى وجازة الجانب التطبيقى لدور التصوف فى الحفاظ على الأمة وقت الضعف السياسى .

الدور العملى للتصوف فى حفظ الأمة ..

لا نستطيع ان نتصور الدور العملى فى (جهاد) أعداء الأمة والذى قام به (الصوفية) إلا بإلقاء بعض الضوء على بعض الصوفية اللذين بوقفوا وقفة عملية (عسكرية) كمقاتلين لجيوش أعداء الله . فاستثاروا الهمم وجمعوا وجدان الأمه على (الأمل) القريب فى نصر الله.

ومن هنا سأذكر شيئا من الجانب العملى فى إطار صوفية (مصر) و(الجزيرة)

ولاشك أننا لو نظرنا إلى (جذور) دولة (المرابطين) بالمغرب ودولة (الموحدين) لوجدنا اصولها (الصوفية) واضحة ... وقد رابطوا على (الثغور) .

وهذا يعتبر مثالا على (التنظيم) القوى لأفراد الأمة فى سبيل حماية الكيان السياسى .

فالصوفى يرفض أن يكون فى (عزلته) راهبا يعبد الله وجيوش أعداء الإسلام تنشر الكفر والفساد والإلحاد خارجها .

وإذا علمنا ... أن الأعداء ما جاؤا الا لاستئصال شأفة الإسلام ... علمنا أى نوع من الصمود ينبغى أن يكون.

ومن هنا نجد مؤرخا مثل (إبن العبرى) وهو : (جريجوريوس ابو الفرج) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) وهو يصف استيلاء (هولاكو) قائد المغول على (قلاع الاسماعيلية) عندما قتل من المسلمين من (الأمة) (اثنى عشر الف رجل).

نجد (ابن العبرى) يعقب على فتك (هولاكو) بالأمة الإسلامية فيقول (وقد اخلى الأرض ٠ يقصد هولاكو – من كل ملحد فى دينه...) يقصد المسلمين .

وهذا يفصح لنا عن نظرة اعداء الأمة اليها مهما غلفوا هذا الرأى فى (أطر) ناعمة وتزداد نعومة وقت قوة المسلمين وتغلظ وتقسو وقت (الضعف السياسى) .

ولذلك سأجعل "النماذج" فى الجوانب الآتية : ...

١ – إبن تيمية الصوفى ودوره فى الجهاد .

٢ – الصوفية وعلاقتها بالثغور .

اولا : دور ابن تيمية الصوفى فى حفظ الأمة ...

إن شهرة (ابن تيمية) العلمية أدت أن تنسخ الجانب الصوفى لدية عند الناس ... فقد سارع البعض بالتعويل على بعض النصوص التى هاجم فيها (إبن تيمية) التصوف واعتبروها رأى (الشيخ) فى هذا المنهج .

ولكن من يمد بصره إلى (فتاوى) الشيخ يجد أنه قد أفرد لها أقوالا كثيرة جميعها جامع (الفتاوى) فى اكثر من (جزأين) وفيها ينظر بوضوح من خلال نصوص (ابن تيمية) انه صوفى على الحقيقة وأنه محب للتصوف سالك لمنهجه.

وقد تحدث عن التصوف ورموزه ومصطلحاته ومصادره الحقيقية بصورة تخلق منه (متصوفا) بالمعنى الاصطلاحى للعلماء، ولعل هذا الذى حرض أحد الباحثين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة أن يحصل على درجة (الماجستير) من جامعة أم القرى عن بحثه بعنوان (ابن تيمية المتصوف) وهذا البحث مكانا وزمانا وباحثا له دلالته فى

هذا المضمار ، وقد تدفقت على المكتبة الإسلامية الكثير من (البحوث) والكتب التى تتحدث عن (تصوف ابن تيمية)[١] .

ومن ذلك نستطيع أن نتبين أن موضوع (صوفية ابن تيمية) ليست محل خلاف بين الباحثين مهما كان المنزع المذهبى .

نظرة ابن تيمية للأمة :-

لقد تميز (إبن تيمية) عن غيره من علماء الدين فى عصره بحماسه الشديد لما يؤمن به من ربط الدين بالحياة ، وقد أعانه على ذلك فهمه لمعنى (التوكل على الله) واعتزازه بقوته ويقينه بأن (الجهاد) فى سبيل الله والوطن من أعظم القربات لله تعالى ، وأنه (فرض) عند (النفير) وأن الله فضل المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما .

ولذلك لم يتردد (ابن تيمية) أن يكون فى طليعة المجاهدين للتتار ، فكان له (مواقف) بطولية رائعة كان لها من الأثر الطيب فى إذكاء الروح القتالية عند الملوك والسلاطين وكافة أفراد الأمة الإسلامية .

مواقف صوفية شجاعة لابن تيمية

نستطيع أن نلحظ بعض المواقف التى تدل على ثقة ابن تيمية فى الله تعالى فلم يهاب (مغوليا) مهما كانت سطوته وهذا الموقف البطولى المتكرر منه نشر روح الشجاعة عند بقية الأمة .

أولا : عندما زحف التتار على الشام وتسامع الناس أنهم يقصدون (مصر) تملك الرعب قلوب الناس فاتفق كبار الأمه مع ابن تيمية على الذهاب إلى قائد التتار (قازان) ومخاطبته لوقف الزحف على (دمشق) وأخذ الأمان لأهلها.

ويصف بعض المؤرخين هذه المقابلة مصورا شجاعة (ابن تيمية) الصوفى فيقول :

---

[١] يراجع التفصيل فى كتاب (ابن تيمية السلفى التصوفى) للدكتور محمد مصطفى حلمى .

(جلس الشيخ – ابن تيمية – إلى السلطان قازان حيث تجم الأسود فى آجامها وتسقط القلوب داخل أجسامها ، خوفا من ذلك السبع المقتال ، والنمروذ المحتال والأجل الذى لا يدفع بحيلة محتال.

جلس إليه واوما بيده إلى صدره وواجهه ودرأ فى نحره)[١].

وهذه الصورة توضح أن الرجل الصوفى إن نظر إلى هذا اللقاء بعين (المعذور) وجد فى قوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) مندوحة من التعرض لمثل هذا الجبار الغشوم .

ولكن الرجل يصدر عن (صوفية) ترى الأمور فوق الأعذار وأن المسالة صارت عنده فى دائرة (إيثار) لا (استئثار) .

ثانيا : أما فى سنة ٧٠٠هـ عندما اشتد الخطر على الشام من هول ما يفعله بهم التتار واصبح الناس بين هارب او مستسلم ، هرع للمجتمع وفرج على الناس وراح يثبت قلوبهم وبعدهم بنصر الله ويقرأ عليهم قوله تعالى (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور) .

فلما تجمع الناس حوله ، وتحلقوا فكره ، وثباته ، طلب الأمراء أن يركب (ابن تيمية) إلى حكام مصر ليكون (سفيرا) عن الوالى فى طلب النجدة من سلطان مصر لإنقاذ الشام وفعلا جاء (ابن تيمية) سفيرا إلى القاهرة ، وقابل السلطان وطلب منه (المدد) لنصرة الشام .

ويصف المؤرخون أنه خوف السلطان قطز بقول الله تعالى :

(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، وقوله سبحانه (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا) .

وبلغت شجاعة (ابن تيمية) أسماع قاضى مصر الشيخ تقى الدين بن دقيق العبد ، فاستحسنه وتعجب من قدرة الشيخ على مواجهة السلطان[١] .

---

[١] يراجع التفصيل فى ص٧ ج١٤ من كتاب (بداية ونهاية) لابن كثير وص ٢٨٨ ج ٢ من كتاب (تاريخ ابن الوردى)

ثالثا : وليس أدل على قوة المتصوفة فى تحريك همة الأمة فى ملاقاة الأعداء من موقف (ابن تيمية) القتالى الرائع فلم يكتف بتحريض الأمة على الجهاد.

بل نجده قد قام بعمل مجيد عام ٧٠٢هـ فقد تقدم الصفوف فى ميدان القتال وحضر موقعة (شقحب) التى كانت بين التتار والأمة الإسلامية وقد اجمع التتار فيها امرهم واستعدوا بكل قوتهم للقضاء على المسلمين .

وقد سبب هذا الحشد المغولى للمسلمين فزعا وبلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالا شديدا .

وفى هذه الموقعة التى شهدها الصوفى (ابن تيمية) الذى كان يتقدم الصفوف وينادى بالجهاد والثبات وهو فى أتون المعركة والتى كانت فى شهر (رمضان) وقاتل هو فعلا مع جماعة من الصوفية أصحابه .

وانتهت المعركة بنصر الأمة الإسلامية وقتل فيها من التتار عدد كبير فلم ينج إلا القليل .

وقد أقبل المسلمون على (ابن تيمية) بعد النصر يهنئونه بما أتى الله به على يديه من النصر والخير .

ويحكون فى كيفية تحريضه لجيش الأمة ، أنه بدأ بالسلطان يحرضه ويبشره بالنصر ، (وجعل يحلف بالله الذى لا إله إلا هو أنكم لمنصرون عليهم ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله فيقول : إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا)[٢] .

وقد كان هتاف (الله أكبر والعزة له تعالى ولرسوله وللمؤمنين) حقيقة تملأ صدر ابن تيمية وفاضت على من حوله من المجاهدين .

ولم يقتصر (ابن تيمية) على ذلك بل نجده يصدر (الفتاوى) التى تفضح شأن أعداء الأمة .

فقد أفتى بأن (التتار) مثل (الخوارج) فى وجوب قتالهم ودفعهم من ديار الإسلام .

---

[١] يراجع ص ٨٣ من كتاب (ابن تيمية) للدكتور محمد يوسف موسى .

[٢] سراجع ص ٨٤ من كتاب (ابن تيمية) للدكتور محمد يوسف موسى .

كذلك نجده يتهم بعض الصوفية (الحلولية) بأنهم يمهدون لأعداء الأمة بتلك الآراء الفاسدة التى تفت من كيان الأمة الإسلامية وناقش بقوة (ابن عربى) و (القونوى) و (التلمسانى)[١] .

صوفية الجهاد عند ابن تيمية

لقد شعر ابن تيمية أن الأمة فى ضعفها السياسى لا تحتاج إلى كثير مال ، ولا كثير رجال ٠٠ ولكنها تحتاج إلى الكثير من الإيمان بفريضة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأن هذا لا يمكن أن يصدر إلا عن (وجدان) يرى الله تعالى ويبتغى وجهه الكريم .

ومن هنا وجدنا (ابن تيمية) يدخل مباشرة على تربية (الوجدان) واستنهاضه ، فيلجأ إلى منهج (الصوفية) فى هذا المضمار ، ويربط (الجهاد) فى سبيل الله بنظرية (الحب الإلهى الصوفى) .

يقول الباحثون : (وقد كان ابن تيمية بسلوكه فى حرب التتار معلنا عن أنه صادق الإيمان بعقيدة ، وأن المنهج السلفى كفيل بتخريج الشخصيات المعبرة عن الإسلام فى أنقى صورة لافى ميدان : العقائد والعبادات والجهاد فحسب ، بل فى المجال (الأيديولوجى) أيضا ٠٠!!

لأن شيخنا ٠٠ربط فكرة الجهاد بنظرية الحب الإلهى معلنا: أنه لا يكفى إدعاء المحبة لله تعالى والترنم بهذه العاطفة فى سلبية الصوفية المعتكفين فى صوامعهم الموحشة الصامتة .

وإنما ينبغى للقلوب التى تفيض – يقصد التصوف الحقيقى – والتى تنبض حقا بالحب الإلهى الحقيقى أن تبرهن على صدقها بتحمل (كراهية الجهاد) لإعلاء كلمة الله فى الأرض إن الجهاد لازم : المحبة الكاملة[٢] ..)

وتسرى فكرة ربط (الجهاد) بنظرية (الحب الإلهى الصوفية) من (ابن تيمية) إلى مدرسته الصوفية فنجد (ابن القيم) فى كتابه (مدارج السالكين) يقول : –

---

[١] يراجع ص ٢٨٢ من كتاب (ابن تيمية السلفى والتصوف) للدكتور محمد مصطفى حلمى .

[٢] يراجع ص ٣٠٩ من كتاب (ابن تيمية السلفى والصوفية) للدكتور محمد مصطفى حلمى .

(إن عبودية الجهاد ، من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه وتعالى)

دور صوفية الثغور فى حفظ الأمة :-

لن نتعرض لكل أدوار الصوفية الذين أبلوا بلاء حسنا فى ميدان السياسة والقتال دفاعا عن الأمة الإسلامية وقت تعرضها للضعف السياسى .

لأننى لا أستطيع مسح (جغرافية) الأمة الإسلامية كلها للخروج بدراسة (بيلوجرافية) تحدد لى فى قياس محدد (حجم) هذا الدور بإعتبار (ذاته) ٠٠ لا بإعتبار (نتيجته) كما أحاول الآن ، فإن تقضى هذا الدور يحتاج لجهد ووقت ٠٠ ويكفى أن نمهد الطريق ونلفت الأنظار ونلقى ضوءا يغرى السفن على مراسى هذه الحقيقة .

ولكننى لن أتتبع حتى (مشاهير) الصوفية الذين كان لهم دور سياسى لأتحدث عن دوره فى سبيل الأمة بالتفصيل.

ويكفى مثلا أن نستحضر مثل (ابن سبعين) الذى كان خير (سفراء الصوفية) وقد ذهب فى مهمة محددة سياسية عند ملك (صقلية) الإمبراطور (فردريك الثانى) وله معه محاورات ومجالات تنم عن ذكاء الصوفية وفهمهم لمعنى الكياسة والسياسة [١].

وأن (الدروشة) كان لها مفهوم آخر لديهم يختلف كثيرا عن مفهومها فى عصرنا الحالى [٢] .

وقد كان ابن سبعين (شيخ طريقة صوفية) ولم يكن يعيش فى برج عاجى منعزل عن (الأمة) وإنما كان يتمتع بثقة الناس وله سيطرة على (الوجدان) حتى وصف بأنه (كان له أتباع كثيرون)[٣] .

---

١) يراجع تفصيل : المخاطبة والمقابلة والرسالة السياسية التى كتبها (ابن سبعين) فى تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر ٠٠) .

٢) كلمة (درويش) كلمة فارسية . معناها : الفقير المسكين الزاهد ، وكان العامة يطلقوها على (الصوفية) فى بعض العصور التاريخية .
يراجع التفصيل ص٢٤٠ وما بعدها ج ٤ من كتاب (ظهر الإسلام) للدكتور أحمد أمين.

٣) يراجع ص٧٩ ج ٣ من كتاب (ظهر الإسلام) للدكتور أحمد أمين .

ولكننى سأكتفى بإيراد بعض الزوايا الإشارية التى تفصح عن دور الصوفية فى الدفاع عن كيان الأمة الإسلامية إبان الضعف السياسى .

وذلك من خلال بعض الصوفية التى عاشوا فى (مصر) حتى يمكن الارتكاز على الخلفية التاريخية المسلم بها فى الطى والاختصار ٠٠ فتكون فى غنى عن الإطالة فى الإعلام بالأعلام .

موقف صلاح الدين من صوفية مصر :-

أود أن أنوه بموقف (صلاح الدين الأيوبى) من الصوفية فى مصر بالذات ، وفى الأمة الإسلامية بصفة عامة .

فإن (صلاح الدين) باعتباره قائدا حربيا متمرسا : لاحظ بصدق دور (الصوفية) فى الجهاد القتالى وإثارة الهمم وإيقاظ الوجدان.

ومن هنا بعدما كتب الله له النصر فى حرب أعداء الأمة نجده يقر بفضل الصوفية ويعترف بدورهم البطولى فى حفظ الأمة فى أصعب الظروف .

ولم يكن الشكر كلمة عبارة كعادة المنتصرين ولكنه كان عملا رائعا ، فقد انشأ للصوفية (دارا) ينتجعون إليها ويعيشون فى صوامعها وتجرى عليهم فيها الأرزاق ويقابلون بها (المريدين) وهو ما يطلق عليه اسم (الخانقاة) فقد بنى (صلاح الدين) (أول خانقاة) فى الدولة الأيوبية بمصر ، وهو ما يعرف باسم (خانقاة سعيد السعداء) .

فقد ذكر المقريزى عند كلامه على هذا الخانقاة :

أنه : (لما استبد – تمكن– الناصر صلاح الدين بن أبو شاور بملك مصر ، بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع فى قصر الخلافة واسكن فيه الأمراء الأكراد عمل هذه الدار –الخانقاة– رسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم عام ٥٦٩ هـ – سنة تسع وستين وخمسمائة – فكانت أول خانقاة عملت بمصر وعرفت (بدويرة) الصوفية [١] .

---

١) يراجع التفصيل ص٢٧٣ ج ٤ من كتاب (الخطط) للمقريزى ، وأنظر التحليل ص٤٤ من كتاب (التصوف فى مصر) للدكتور توفيق الطويل .

وهذا الموقف الصادر من (بطل) الأمة الإسلامية ، وكاسر شوكة الصليبيين ، يعتبر دلالة قوية على أن (دور) الصوفية فى المشاركة الفعلية فى (جهاد) أعداء الأمة عند صلاح الدين كان دورا مؤثرا وضروريا .

ولا مانع أن نضيف من الأسباب بجانب الإقرار بالفضل والعرفان بالجميل ما نتصور أنه يمكن أن يخطر على بال قائد (محنك) مثل (صلاح الدين) .

فما الجائز أن يكون قد بنى (الخانقاة) ليجمع الصوفية فى (دوبرة) ليسهل عليه (التعبئة) لهم عند اللزوم وقد يكون قد بنى (الخانقاة) ليحصر دورهم بين الأمة خشية افتتان (عامة) الأمة بهم .

وأن للجهاد والعبادة (فتنة) تأخذ على صاحبها لبه فيكون لها من الخطر ما لا يقل عن فتنة (المعصية) .

ويكفى أن نستحضر أمامنا الآن (مجاهدى أفغانستان) وقد رفضوا إلقاء السلاح فى بلدهم بعد تحريرها ، حتى أن من قتل على ايدى المجاهدين يفوق بكثرة من قتل على أيدى الغزاة الشيوعيين الملاحدة .

الأتراك والتصوف

ولعل موقف الأتراك من عظمة دور التصوف فى الدفاع عن الأمة وقد اشتهر عن الأتراك أنهم يميلون بطبيعتهم إلى العلوم والتدين القائم على العقل بجانب الحرص وينفرون من المعرفة (الإشراقية) ولذا لم ينبغ لديهم (صوفى) ولم تكن هناك حركة صوفية (تركية) مثلما ظهرت عند (النورسى) وغيره .

ولذلك عندما ينقل لنا الدكتور توفيق الطويل بأن الأتراك احبوا التصوف وقدسوا المتصوفة وآمنوا بصدق ولا يتهم ، فقاموا بإنشاء (التكايا) وعمروا ما خرب منها مثل : (تكية الكناشية) المجاورة للقصر العينى بالقاهرة فلا غرابة ولا عجب.

وقد سرى فى الجنود الأتراك رغم شجاعتهم فى ميدان الوغى إحساس بدور الصوفية القتالى ، أثر ما كان يحكى عنهم من بطولات ، وصلت أحيانا إلى طور (الأساطير) .

وقد روى المناوى فى ترجمته : إبراهيم الكلشنى العجمى[١] ، الذى دخل مصر فى دولة بنى عثمان ومات سنة اربعين وتسعمائة أن الجند تهافتوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتتلون على شرب الماء الذى بقى من غسيله فى حمام .

وقد خافت الدولة من سلطانه وخشيت من تفكيره فى الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان .

فقررت (نفيه) إلى بلاد (الروم) مدة من الزمان فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امتثالا لأمر السلطان [٢] .

وهكذا نجد أن (الصوفية) قد استطاعوا أن يوسدوا لهم مكانة فى كيان الأمة الإسلامية بسبب موقفهم الرائع فى استنفار (الوجدان) الإيمانى عند المسلمين .

دعوى باطلة

وقد انطلق الصوفية فى دورهم من رؤية أن هذا (البلاء) من الأعداء هو (ابتلاء) من الله تعالى لاختيار المؤمنين تحقيقا لقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) .

وعليه :فإننا لا نوافق على الإطلاق من يذهب إلى أن الصوفية اعلنوا (الشماتة) فى الأمة الإسلامية عندما تعرضت للعدوان والتخريب .

فقد نقل أحد الباحثين عن الدكتور (عمر فروخ) أنه ذكر أن الصوفية كانوا (بحكم الشك فى منهجهم يعتقدون كما قيل عنهم بأن الحرب الصليبية ، كانت (عقابا) للمسلمين على ما سلف لهم من

---

١) وقد سمعت فى بعض الفضلاء الصوفية أن الشيخ إبراهيم العجمى ، هذا هو الذى سميت منطقة (العجمى) الإسكندرية باسمه ، لأنه عاش فيها مجاهدا حارسا لثغر من ثغور الله .

٢) يراجع ص١٦٣ من كتاب (التصوف فى مصر) للدكتور توفيق الطويل .

الذنوب والمعاصى ٠٠ ولعل الغزالى شاركه سائر الصوفية فى مثل هذا الاعتقاد [١] ٠٠٠

وهذه الدعوات باطلة ٠٠ لأنها تشى بشئ فاسد وهو أن المبتلى هو العاصى فقط ، وذهلوا عن أن الطائع قد يكون أشد ابتلاء ٠٠ ولكن البعض قد يسارع فى ظروف الكوارث إلى مثل هذه الأقوال الساذجة التى تدل على قلة فهم للدين والبلاء [٢] .

وتصورى : أننا لو سلمنا بما نقل من (شماتة) الصوفية فى البلاء فلعله عثر على نص لأحد الصوفية الحلولية الذين ينكرون (الجهاد) .

ولا شك : أن (الشماتة) تنسجم مع عقيدتهم فى العداء للأمة ، فدعوتهم – عندئذ – تحض (الأمة) على الاستسلام للواقع باعتبار الإيمان بالعقوبة والصبر عليها يمثل الرضا بقضاء الله وقدره ، وهذا وهم فى الاستدلال .

أعلام الصوفية فى الثغور :

إذا كان أعداء الإسلام من الأجانب عنها دينا وجنسا فإنهم يأتون للإغارة عليها من أماكن بعيدة ويركبون البحار فى سبيل مداهمة الأمة الإسلامية .

ولذلك كان (البحر) هو مصدر (الخطر) على الأمة فمنه يأتى الأعداء ٠٠ ونظرة إلى تاريخ (موجات) الاعتداء على الأمة نجدها آتية من (البحر) بطريقة مفاجئة .

---

[١] يراجع ص ٣٠٩ من كتاب (ابن تيمية السلف والتصوف) للدكتور محمد مصطفى حلمى .

[٢] وما زالت تطالعنا مقالات الشماتة فى الأمة الإسلامية ، او مقالات الساذجة ، أن قيلت بحسن نية ، منذ سنة ١٩٦٧ وحتى ١٩٩٢/١٠/١٢ (الزلزال) وكلها (همهمات) قول على (الحق) او (قصر النظر) ، فالابتلاء قدر الله يجريه على من يشاء من عباده ، ليجزل لهم العطاء والنصر ، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا) .

ومن هنا برزت أهمية (رباط الصوفية) على الثغور حيث (الخط الأول) الدفاعى عن الأمة

والثغور الإسلامية أعنى بها : الشواطئ الساحلية الممتدة على حدود الأمة الإسلامية ، وهى مترامية الأطراف تبلغ مئات الأميال ، فتحتاج إلى (جيوش) كثيفة لشغل هذه السواحل بما يمكن أن نطلق عليه (مفارز الاستطلاع) .

وهذا كله فوق طاقة السلاطين والحكام للنفقة الباهظة فكان يكتفى بوضع نقط مراقبة عند الأماكن التى يظن قدوم الأعداء منها ، وذلك فى أثناء الحرب ، ويترك ذلك فى أوقات السلم .

ولكن (الصوفية) الذين جاهدوا فى سبيل الله آمنوا أن الجهاد هو جهاد أعداء الأمة فى الدين والجنسية ، فزجوا إليهم لملاقاتهم والإنذار بقرب وصولهم تحسبا لخطرهم وتمكنا من إعداد العدة فى الوقت المناسب .

لذاك أفتى (الصوفية) أنفسهم بفتوى تقول : أن مكان وجودهم إن أرادوا (حفظ الأمة) هو مكان (ترقب الخطر) ٠٠وهو ترقب من (البحر) .

وبذلك وجدنا (الساحل) يتحول إلى (نقاط مراقبة) قوية بين كل نقطة ونقطة المسافة القصيرة التى تسمح بالاتصال بين كل نقطة وأخرى بالوسائل المتاحة آنذاك .

لم يكن الصوفى يختار (خندقا) أو (مغارة) تسهل له أمنه وسلامته ٠٠ فهذا موضوع لا يشغل بال من خرج مجاهدا طالبا الشهادة فى سبيل الله .

وإنما كان (الصوفى) يختار (رباطه) على (ربوة) مرتفعة جدا، ليتمكن من رؤية (السفن) الحربية من بعيد ، فيتحقق ما نسميه فى عصرنا الحديث (الإنذار المبكر) ، وهو فى ميدان الجيوش المتحاربة ليس بالأمر الهين .

ويمكننا إدراك أهميته إذا أخذنا فى الاعتبار ان قيمة (المخابرات) الآن فى كل دول العالم إنما هى فى تحقيق هذا (الإنذار المبكر) .

وحول (الشيخ) الصوفى فى هذه المنطقة الساحلية ، المرتفعة المنقطعة على العالم يعيش مع (الصوفى) فى زهادة بشر وخلق كثير ، بباعث روحى ذاتى وليس موجها من سلطان او حاكم ، إنما هو يشعر أنه (أمين) على كيان هذه الأمة فيندب نفسه للعمل على (حفظ) الأمة فى فترات الضعف السياسى .

وكان (المريدون) يلتفون حول الشيخ ينهلون من علمه ومواجيده ، وتتحول الصحراء القاحلة ببركة الصوفى إلى منطقة آهلة فتحفر الآبار وتزرع الأشجار ، وتؤنس الحياة وتترامى الأطراف بفعل الزمان ، ويعمر المكان بالإنسان الجديد وليد النشاط الصوفى الوجدانى .. وبذلك تتكون (نواه) اجتماعية على نسق نفسى جديد .. يصلح أن يكون (درعا) للأمة من عدوها الغادر .

ولعل هذا يفسر لنات: سبب انكسار الموجات المعتدية بعد ذلك على الشواطئ وحول الموانى ، وقبل الولوج داخل أراضى الأوطان ..ولننظر إلى (رشيد) و(الإسكندرية) وجهادهما .

وقد طبق الصوفية بالفعل منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وهو (عين باتت تحرس فى سبيل الله) .

وقد روى عن الشيخ (القبارى) ساكن حى (القبارى) بالإسكندرية ، والذى كان منطقة منعزلة ، وصار (حيا) سكنيا نبت على (المريد) للشيخ ، أنه (حفر) بنفسه (بئرا) للماء فى المكان القفر المهجور .

صوفية الأحياء السكنية :-

وإذا كان الشيخ (القبارى) ما زال اسمه وحيه السكنى الدال على كفاحه موجودا بالأسكندرية.

فإن على ساحل البحر الأبيض المتوسط نجد عظماء الصوفية الذين عاشوا على الساحل ابتغاء مرضاة الله .

ويمكن أن نشير فى (ثبت) سريع إلى أشهر هؤلاء :

١- سيدى (أبو الحسن الشاذلى) .
٢- سيدى جابر / الإسكندرية .
٣- سيدى بشر / الإسكندرية .
٤- سيدى المرسى أبو العباس / الإسكندرية .
٥- سيدى الأباصيرى / الإسكندرية .
٦- سيدى (الشاطبى) / الإسكندرية .
٧- سيدى المتولى /(بحى المنشية بالإسكندرية) .
٨- سيدى القبارى / الإسكندرية .
٩- سيدى عبد الرحمن/ (الساحل الشمالى)
١٠- سيدى كرير/ الساحل الشمالى .
١١- سيدى برانى / الساحل الشمالى .
١٢- الشيخ السنوسى / ساحل ليبيا .
١٣- سيدى العوام (مطروح) .
١٤- ابن عطاء الله السكندرى .

وليس غريبا :أن تسمى (المدن) التى كانت فيما بعد موطنا لهم بأسمائهم تخليدا لجهادهم : (ورفعنا لك ذكرك) .

الشيخ الشاذلى :

وقد كان للشيخ الصوفى الجليل أبى الحسن الشاذلى دور هام فى الجهاد فى سبيل الأمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

وقد كون (جيشا) من المريدين وخاضوا المعارك يطلبون الشهادة وأبلت (الطريقة الشاذلية) بلاء حسنا فى المعارك مع الصليبيين.

وعاش (الشاذلى) فى ثغر الإسكندرية ، فلما تاقت نفسه لأداء فريضة الحج اتجه صوب البحر الأحمر ليسلكه إلى الأراضى المقدسة.

ولكن (المنية) عاجلته ، فتوفى عليه رحمة الله بصحراء مصر قبل أن يصل إلى ساحل البحر الأحمر ٠٠ ودفن هناك فى محافظة البحر الأحمر الآن وقبره معروف[١] .

وهكذا نجد أن الصوفية يعمرون الأرض أحياءا وأوماتا .

السيد البدوى / الصوفى

ويمكننا أن نعتبر أن السيد / أحمد البدوى ساكن طنطا له نشاط ملحوظ فى الحروب مع أعداء الإسلام .

وقد ظهر ذلك فى (الرجز) المشهور الذى يترنم بجهده (البدوى) فى (أسر) جنود الأعداء ٠٠

إبراهيم الدسوقى / الصوفى

ومن مفرزات الجهاد الصوفى هو إبراهيم الدسوقى ساكن دسوق – كفر الشيخ – ودوره فى الجهاد فى سبيل الله يحتاج إلى إبراز ، ولعل مدة إقامته بسواحل البحر ، هى التى حببت إليه السكنى على الماء (النيل) عندما أراد أن يعلم الناس معنى (الوجدان) فى الإسلام .

دور الصوفية فى حفظ الأمة من الظلام :

ولعل الصوفية فى واقع حبهم لله تعالى : أنطلقوا فى ميدان (حفظ) الأمة من كل خطر ٠٠ واعتبروا أن (ذل)المسلم مساو لاحتلال الوطن ، فالكل (احتلال) وإذلال للأرض او العرض أو الكرامة ، او الإنسانية .

ولذلك نجد الصوفية يكادون لا يفرقون بين (عدو) للأمة أجنبى الدين والجنس ٠٠ وبين (عدو) للأمة من (أبناء) الدين سواء اتحد الجنس أم أختلف ، إنما مكن الله لهما (الدين) ان يحكم اخوته ويتسلطن عليهم .

وكان الصوفية يرون فى (تسلط) الحكام على الرعية نوعا من إذلال الأمة الإسلامية ، يجب مقاومته .

ومن هنا برز للتصوف دور هام فى (حفظ) كرامة الأمة وحماية (حرية) الإنسان ٠٠ومقدراته .

---

١) يراجع التفصيل فى كتاب (أبو الحسن الشاذلى) للدكتور عبد الحليم محمود .

ولقد ظهر ذلك بوضوح فى فترة الحكم (العثمانى) فقد تنكب الطريق القويم فى رعاية (الرعية) بعض (حكامها) وكان يهب بعض الصوفية لينصفوا الأمة منهم ويعدلوا مسار الحكم الذى ينبغى أن يكون.

ولما كانت تجد الأحداث وتتشابك المظالم على الرغبة حتى تعتبر (ظاهرة) لا ينبغى الصبر عليها ٠٠نجد أن (أول) من (يثور) على الظالم تلك (الصوفية) المنقطعون للعبادة فى (الزوايا) والمساجد .

وأحب أن أنبه إلى: أن الصوفى فى العصر العثمانى فى مصر لا يمكن أن يكون مختلفا عن (التصوف) فى غيره او غيرها لأن الوجدان الصوفى واحد ، والأمة بآلامها وأمالها واحدة فى كل عصر ومصر .

وإذا كنا لم نلحظ فروقا عند الصوفية وهم يقاومون الصليبيين او التتار ، او فروقا فى طريق مقاومتهما .

فإننا نخرج من ذلك بالصورة التى عليها ثبات الوجدان الصوفى ، والذى انعكس على (ثبات) المقاومة وثبات روح (الحفاظ) على الأمة عند الأخطار والكوارث .

يقول الدكتور توفيق الطويل :

(أن التصوف الذى قام بمصر إبان العصر العثمانى كان امتدادا طبيعيا للتصوف الذى شاع فى مصر قبل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن فى تياراته ، بل كان فى : قوتها وضعفها)[١] .

بل لقد امتد التصوف بروحه وعطائه ونفوذه حتى بعد زوال حكم الدولة العثمانية ، ولقد استفاد الصوفية من تجربة الحروب الصليبية والتترية ، فأعادوا (تنظيم) المريدين فى هيئة (طرق) لكل طريقة شيخها ، بل لكل (صف) شيخه ، حتى (شيخ المشايخ)[٢] .

ولذلك لم يكن عجبا أن تكثر الطرق الصوفية فى مصر العثمانية ، فقد تهيأ لهم سلطان واسع وتغلغل نفوذهم فى الطبقات والهيئات ، وصار لهم من المريدين والاتباع كثرة [٣] .

---

١) راجع ص ١٥٧ من كتاب (التصوف فى مصر) .
٢) راجع ص ١٢٠ من المرجع السابق .
٣) راجع ص ٥٥ من كتاب الدكتور توفيق الطويل (التصوف فى مصر) .

التحول لظاهرة اجتماعية :

ألمحنا إلى دور التصوف فى ملاقاة الأعداء .. ودوره فى دفع ظلم الأبناء ، وكيف استفاد فى تجربته فنظم صفة وطريقته فأزداد نفوذا وقوة ، وصار ملاذا للأمة .

ومن هنا لا ندهش عندما نجد التصوف يتحول إلى ظاهرة اجتماعية يؤدى دورا اجتماعيا هاما لصالح فئات الأمة المظلومة ويدفع بالعدل فى طريقه الشرعى .

فقد حكى (الشعرانى) فى (طبقاته) ان التصوف تحول فى مصر العثمانية من ظاهرة وجدانية إلى ظاهرة اجتماعية تتمثل فى حياة أتباعه فى الزوايا تحت إرشاد الشيوخ.

والكثير من هذه (الزوايا) كان حريصا على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائد الدين فى أمهات الكتب المعروفة [١] .

ولم يخذل التصوف الأمة فى المساندة عند الحكام مهما كانوا ، فازداد تعلق الناس بهم .

فقد وقف الصوفى الشيخ شمس الدين الحنفى عام ٨٤٧هـ أمام السلطان (برقوق) وغيره مطالبا بحقوق الأمة ورفع الظلم عن الرعية .

ولم يكن موقفه غريبا عن الجو العام إذ شاركه فيه الكثير من الصوفية عند الأمراء والكبراء والملوك والسلاطين .

موقف صوفى مع السلطان الغورى

يهمنى أن أنقل هنا (الموقف) الشجاع بين أحد كبار الصوفية وبين السلطان الغورى.

يقول الدتور توفيق الطويل نقلا عن (الطبقات الكبرى)

(وقد ضاق السلطان الغورى بشمس الدين الديروطى فى عام ٩٢١هـ ، لأنه يتهمه بالتقصير فى شأن الجهاد[٢] .

وتسامع الشيخ الديروطى بذلك .. فمضى إليه حتى إذا حياه استقبل السلطان تحيته بالصمت .

فقال الشيخ : أن لم ترد السلام فسقت وعزلت .

فقال السلطان : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

---

١) يراجع ص ٥٦ من كتاب (التصوف فى مصر) للدكتور توفيق الطويل .

٢) يلاحظ تشابه المنهج الصوفى فى مختلف الأدوار التاريخية .

ثم قال : علم تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها؟ [١] .

فقال الشيخ : عندكم المال الذى تعملوها به .

ثم طال بينهما الجدال

فقال الشيخ للسلطان : قد نسيت نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ورقاك إلى أن صرت سلطان على الخلق .

ثم طفق الشيخ يذكره بالآخرة وفناء الدنيا والسلطان ، ثم تركه وأنصرف .

فأرسل السلطان فى طلب الشيخ يترضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال ، والشيخ يعرض عن ماله ويحقر من شأنه .

فما رؤى أعز من الشيخ ، ولا أذل من السلطان فى ذلك المجلس [٢] .

تفاعل الصوفية مع الحياة الاجتماعية :

نوهنا إلى أن الصوفية كانوا حماة للأمة من أعدائها وأبنائها الظلمة ، فمن أين وقفوا على مشكلات الأمة وهم فى عزلتهم وزواياهم...؟

الحقيقة : أن التصوف لم يكن ظاهرة فردية ، بل حركة نفسية ارتقت إلى الظاهرة الاجتماعية .

وكان الصوفى يجلس إلى (مريدية) فيستمع إلى شكاوى الرعية ويتفاعل بها وينفعل لها ورغم أن الصوفى المعتكف فى عزلته مستغرقا فى رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسد ، فإن اختلاطه بالرعية ومعايشته لأحوال المريدين قد تحول به إلى رجل

---

١) يلاحظ حديثه عن (المراكب) آلة الجهاد فى سبيل الله وعلاقتها بالبحر والثغور ، وفى ذلك دلالة على أن (الصوفية) كانت تفهم (التوكل) فهما واعيا إسلاميا ، وأنها فرقت بينه وبين (التواكل) ، وأن اتهام الصوفية بالتواكل ، هو (افتداء) من أعدائهم .

٢) رجع ص ٤٩ من كتاب (التصوف فى مصر) للدكتور توفيق الطويل .

شديد الحرص على الاجتماع بالمريدين والاتباع والاتصال بسائر الناس ، أغنية او فقراء ، رعايا او حكاما ، يتفاعل مع الحياة الاجتماعية إلى يعيش فيها ، يتأثر حينا ويؤثر أحيانا .

وبلغ هذا التفاعل ذروته ، فأقيم للطرق الصوفية شيوخا ومريدين (زوايا) و (تكايا) و(خانقاهات) ليستقر بها الشيوخ مع الأتباع.

وبلغ من ثمرة هذا التفاعل مع الحياة الاجتماعية أن عاش الصوفية (نبض) الرعية ، فاستغلوا نفوذهم فى حمايتها ، فكثيرا ما كانت شكاوى الرعية ترفع إلى (الشيخ الجارحى) شيخ الصوفية فى عهده فيستقدم الأمراء ليحاكمهم بنفسه ونفوذه وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم بالجلوس .

بل لقد حكى أن أمراء المماليك فى مصر ، قد اشتركوا بذواتهم فى حمل (التراب) على أكتافهم لبناء زوايا الشيخ الجارحى الصوفى ، كما ذكر الشيخ الشعرانى فى كتابه (مناقب العلماء والصوفية)[١] .

ولم يكن نفوذ الصوفية فى (مصر) وفقا على (مصر) بل تخطاه إلى كل بلاد الأمة الإسلامية لاتساع نظرتهم إلى الأمة .

يقول صاحب كتاب " التصوف فى مصر " :

(وكان البكرى الكبير المتوفى٩٩٤هـ ملحوظ المكانة بين الحكام يهادونه ويكاتبونه وللسلطان (سليمان خان) مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المرتبات الخاصة له وذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس)

بلغ صيت (قطب مصر) الصوفى الشيخ محمد الحفناوى المتوفى ١١٨١هـ من الانتشار والذيوع حتى (بلغ ذكره سائر اقطار الأرض)[٢] .

ولم يكن الناس يستقبلون أقطاب الصوفية بسذاجة الأساطير وإنما كانوا يجرون عنهم كل ما فى طبائع النفس البشرية من تقبل وامتحان وملاحظة .

ولذلك كان من (يدعى) المقام الصوفى تدليسا ، سرعان ما ينكشف أمره ويظهر خداعه ، فيلقى جزاءه على يد الأمة وقد وجدنا هذا فى (غضبة) الأمة على الصوفية الحلولية فى العصر الوسيط

---

١) يراجع ص ٤٩ من المرجع السابق .
٢) يراجع التفصيل فى كتاب (التصوف فى مصر) للدكتور توفيق الطويل .

والحديث ، ولكننا أقصد هنا من يتكلف مظهر الصوفية (المثالية) التى تقبلتها الأمة بالقبول .

فقد حدث فى الأندلس أن ظهر شيخ صوفى أندلسى فى عصر دولة الموحدين ، وأدعى القطبية ، فتقاطر عليه الناس ظانين فيه أنه حلقة من حلقات التصوف السنى .

فلما كثر الاتباع ، تحول إلى طالب ملك ودنيا ، وأدعى أنه (المهدى المنتظر) واستطاع أن يستولى على بعض البلاد إثر قتاله للمسلمين ، فظهر بذلك كذب مدعاه .

ولذلك (قتله) أحد أتباعه ، وتلقى نهاية الحكام ولكنها ليست نهاية الصوفية ، فالحكام قد يدس عليه بطانته خائن لقتله ، ولكن (بلاط) الصوفى يختلف عن (بلاط) الحاكم وتعتبر قتل هذا الصوفى وهو الشيخ (أحمد بن فاس) شيئا عجيبا .

لأننا ما نعلم (صوفيا) قتله أحد مريديه إلا هذا الشيخ الذى حول نفسه إلى (أمير) دنيوى [١] .

ولكن هذه الأمور لم تهز إطلاقا الثقة الكاملة فى مناهج الصوفية الوجدانية ، ولم تغض من دورهم الرائع فى حفظ الأمة عند الضعف السياسى ، او غيره من الكوارث والشدائد .

فقد وصلت (قطبية) مصر ممثلة فى ولاية الشيخ الصوفى (الزبيدى) المتوفى عام ١٢٠٥هـ إلى بلاد المغرب ، وبقية الأقاليم الإسلامية ، وأشتهر بصوفيته وعلمه .

وهو نفسه صاحب كتاب (أتحاف السادة المتقين شرح اسرار علوم الدين) وتمام اسمه (محمد بن الحسين الزبيدى)[٢] .

وكانت الأمة الإسلامية تعتقد بعد ظهور دور الصوفية فى مواجهة أعداء الأمة والظلمة من الحكام أن الله هيأ هؤلاء لحفظ الأمة من هلاك الأرض والعرض .

وتحول هذا الشعور إلى اعتبارهم مظهرا من مظاهر عناية الله بالأمة الإسلامية ، وأنهم مثل : السحاب الثقال الملئ بالوصب الذى يحيى به الله الأرض بعد موتها .

ومن هنا : فإن النظرة إليهم كانت نظرة (البركة) الإلهية الذى بها يمطرون ويرزقون بها مثلما يرزقون بسبب المطر .

---

١) يراجع ص٣ من كتاب (ظهر الإسلام) للدكتور أحمد أمين .
٢) وهو نفسه صاحب كتاب (تاج العروس) فى شرح (القاموس) .

وإذا كان العرب فى العصر القبلى ، يجذلون لميلاد شاعر فى القبيلة ويعتبرون ذلك شيئا هاما .

فإن الأقطار فى الأمة الإسلامية ، كانت تعتبر معاصرتها لولى من أولياء الله ، او (القطب) الربانى نعمة كبرى ، وهو اللقب الذى صار يطلق على (الصوفى) القائد الذى تجسد فيه منهج دور الصوفية فى حماية الأمة من الأعداء والأبناء .

ولذلك : إذا ما مات هذا القطب بكى المسلمون بكاء من استشعر فقد نعمة من الله تعالى ، وتوقعوا آثار (مفارقة) القطب الربانى يقول المؤرخ (الجبرتى) معقبا على ممات القطب الشيخ الحفناوى .

(أن البلاء قد نزل بالبلاد المصرية والحجازية والشامية بعده ، ولم يتضاعف حتى عم الدنيا وساد أقطار الأرض وهذا هو السر الظاهرى ، وهو ولا شك تابع للسر الباطن ، وهو القيام بحق وراثة النبوة ، وكمال المتابعة وتمهيد القواعد وإقامة أعلام الهدى والإسلام وأحكام مبانى التقوى ، لأنهم أبناء الله فى العالم وخلاصة بنى آدم (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)[1] .

ولذلك لا ندهش عندما نجد الصوفى فى جميع أرجاء الأمة الإسلامية قد ربط نفسه (بقطب) زمانه (حتى صارت الأمة) مربوطة فى (رباط) الجهاد من أقصاها إلى أقصاها ، وكأنها (شبكة) متصله بمدها بالتيار الأقوى عندما ينادى من مكان بعيد .

وينقل صاحب " طبقات الشاذلية " :-

وأنه (قد بلغ من مكانة الشيخ (على البكرى) المتوفى ١٢٠٧ هـ ، أن كان شيوخ الطرق الصوفية فى الدول الإسلامية يجتمعون به، فيعطيهم أذنا عاما فى عموم الطرق ، ويأذن لهم أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم فى أمر عموم الطرق)[2] .

دور الصوفية فى العصر الحديث :

إن دور الصوفية فى حفظ الأمة الإسلامية فى فترات الضعف السياسى لم ينقطع أبدا ، وهو ممتد بامتداد هذا الأمة التى حفظ الله دينها وجعل الدين الذى ارتضاه وختم بنبوة الإسلام كل النبوات وانتهى

---

١) يراجع ص ٣١٤ ج١ من كتاب (تاريخ الجبرتى) .
٢) يراجع ص١٢٣ من كتاب (الصوفية فى مصر) .

إلى الأمة (آخر) صوت للوحى ، فورثت بذلك الكثير من الخصائص التى تميزها عن غيرها .

وقد وضحت هذه (الخصائص) فى معدنها القوى المتماسك عند الشدائد والذى يدل على سلامة المنهج والوجدان .

ولذلك وجدنا فى العصر الحديث من ينذر نفسه لأداء الدور الصوفى فى حماية الأمة .

وإن من يزور (محافظة دمياط) بلغت نظره مقبرة (ضريح) دفن فيه شيخ صوفى ، كان له دور رائع فى الثغور فى العصر الحديث وهو الشيخ (أبو النضر) وكان معاصرا للحملة الفرنسية بقيادة القائد الفرنسى (فريزر) .

فقبره موجود فى حضن الجبل فى دائرة (بوغاز دمياط) بحيث نجد (القبر) وهو المكان الذى كان الصوفى يعيش فيه وأوصى أن يدفن فى نفس المكان تذكرة لأولى الألباب ، والمكان يتحكم فى (رؤية) القادم من البحر ، فهو على (ربوة) فى حضن الجبل ، تهئ له أن يرقب فى (رباط) مداخل الأعداء فى وطن الأمة .

وهذا عمل (عسكرى) بكل المقاييس ، وقد ندب نفسه بالمهمة إعلانا لدور الصوفية فى حماية الأمة من خطر الأعداء حتى تزول الغمة .

الأمة الإسلامية وجندها الغالب :

لعلنا فى هذه (الأطروحة) قد استطعنا أن نشير إلى (جند الله) كثير وكثيف (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ، وأن قوى الدفاع عن الإسلام يعدها الله ، بمعيار الحفظ والصيانة ، بغض النظر عن توفر شروط الجندية المعاصرة أم عدم توفرها ، فإن النصر والغلبة من الله تعالى .

وإن دور الصوفية فى مراحل تاريخ (ضعف الأمة) فيه الكثير من التأمل والثقة فى (حفظ) الله لدينه ومنهجه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وهذا يربط على قلوب الأمة عندما تتناوشها جحافل البغى والتخويف فيشد من عزمهم ، وتقوى خواطرهم ، فلا يركعوا لغير الله ، ولا يذلوا فإن الواثق من نصر الله لا يذل .

وإن الطمأنينة التى ينزلها الله على (وجدان) الأمة ، بمظـــاهر العون والتأييد هو إيحاء بالحماية والرعاية ، (ويومئذ يفرح المؤمنـــون بنصر الله ينصر من يشاء) .

وجدير بأبنائها من الشباب أن يعيى حركة التاريخ الإســـلامى ليعلم أن حضارة الإسلام وأمته باقية شامخة ، مـــهما ركـــض عليـــها شياطين الإنس بخيله ورجله ، وأن الدرع الواقى هو (ربط) الوجـــدان بالله والثقة فى حفظ الأمة وعسى الله أن يأتى بالفتح او أمر من عنـــده ، والله غالب على أمره ينصر من يشاء من عباده .

أ.د./ مصطفى غلوش

أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين – القاهرة – جامعة الأزهر